المنح الوهبية

على

تلخيص الشمائل النبوية

ومعها

كنز اليواقيت الغالية في الأسانيد العالية

تأليف

الإمام الحافظ المؤرخ

أبي عبد الله محمد بن محمد الحجوي

المتوفى ١٣٧٦هـ

جمعها

الفقيه محمد الحجوي والأستاذ عبد الإله بوشامة

تقديم

الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني

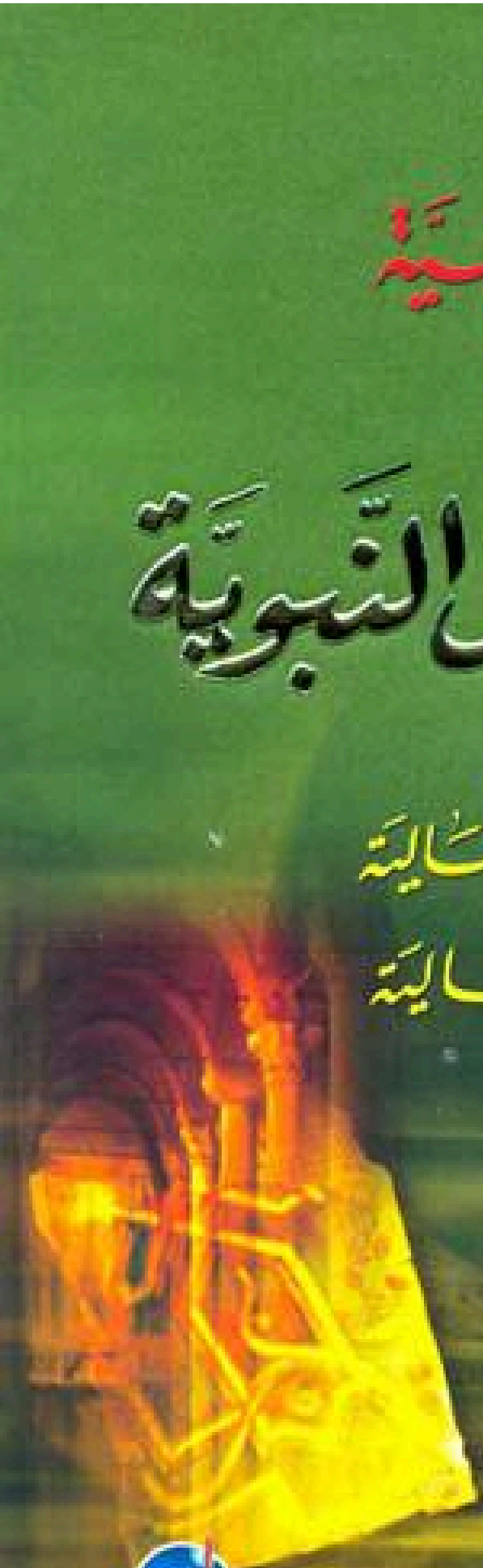

دار الكتب العلمية

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

DKI

المِنَحُ الوَهْبِيَّة

على

تَلْخِيصِ الشَّمَائِلِ النَّبَوِيَّة

ومعها

كنز اليواقيت الغالية

في الأسانيد العالية

تأليف

الإمام الحافظ المزكي
أبي عبد الله محمد بن محمد الحجوجي
المتوفى ١٣٧٠ هـ

صححها

الفقيه محمد الحجوجي والأستاذ عبد الإله بوشامة

تقديم

الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه

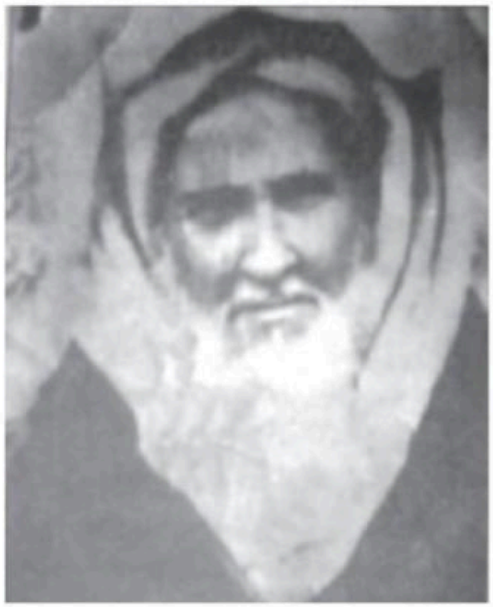
(1)

مقدمة بقلم الدكتور محمد حمزة بن علي الكناني:

الحمد لله الذي جعل في الخلف علماء يقتفون نهج السلف، وينيرون الطريق إلى النبي صلى الله عليه وسلم بما هو متفَق ومؤتلَف، وينقحونها من شظايا المخالفات والزيادات والزلف.

وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة أملأ بها قلبي وصدري وروحي وكلي بمغترَف، وأنقح بها ديني من كل شرك ووسواس يفضي إلى تلف، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله أُس الشرَف، من كان خلقه القرآن، ودينه الإيمان، وشرعه

(1) صورة الحافظ الحجوجي رحمه الله تعالى.

الظل الورِف.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا أحمد سر الذات، ولوح التشكلات، وعلى آله وأصحابه خلفا عن سلف.

أما بعد؛ فيسعدني أن أقدم للقراء هذه الخريدة الغناء، والروضة الشماء، التي هي: "المنح الوهبية على تلخيص الشمائل النبوية"، تأليف الإمام الحافظ، المحدث الناقد، الولي الصالح؛ أبي عبد الله محمد بن محمد الحجوجي الفاسي ثم الدمناتي فالجديدي، أحد أعلام المغرب في القرن الرابع عشر الهجري، ورجالات العلم والدعوة إلى الله تعالى.

وهذا المؤلف شرح لمنظومة في الشمائل النبوية للعلامة الأديب عبد الرحمن بن العباس العراقي الحسيني، المتوفى شابا بفاس عام 1314، والعلامة العراقي - رحمه الله - عالم أديب مشارك، اشتهر بمنظوماته في مختلف العلوم والفنون، في التوحيد، والشمائل، والفقه، والتصوف...وغير ذلك، وقد كنت وقفت على جمع منها في كناشة الشيخ العارف بالله، العلامة الباقعة أحمد بن محمد بن الطيب الجاوزي الفلالي، المتوفى بفاس عام 1324 رحمه الله تعالى. وهو والد العلامة المصلح، المجاهد الداعية، الشهير بشيخ الإسلام: محمد بن عبد الرحمن العراقي الحسيني المتوفى عام 1398.

وهذا الكتاب ألفه مؤلفه - رحمه الله تعالى - وهو ابن نحو سبع وعشرين سنة، غير أنه جعله خزانة أدب وبلاغة، وقاموسا للشمائل النبوية المصطفية، مع ما حوى بين جنبيه من نكات علمية، وفرائد وتحقيقات سنية، تجعل منه مرجعا في بابه، وخزانة في جلبابه.

وكيف لا؟ ومؤلفه هو صاحب كتاب "الحلل السندسية، المحلية للفوائد الجليلة البهية"، وهي حاشية على شرح جَسُّوس على الشمائل الترمذية، تتبع فيها تراجم رجال الحديث وفوائده، ومن خرجه من الأئمة، وفيها أجزاء أربعة ضخام، في القالب الكبير. قال فيها حافظ الرباط وعلامته الشريف محمد المدني بن غازي ابن الحُسني العلمي رحمه الله: "خزانة علم!".

وقد اعتنى بإخراج الكتاب من مخطوطته المكتوبة بخط المؤلف، مجموعة من

الطلبة الجامعيين، تحت إشراف الدكتور عبد الإله بو شامة، ثم استصفى الأستاذ المذكور الكتاب من تعليقاته، وقام بتصحيحه ومقابلته مع ابن المؤلف شيخنا الفقيه الصالح، الذي صفا فصوفي؛ سيدي محمد ابن الشيخ محمد بن محمد الحجوجي، ولم يعدُ عملهما - في الجملة - ضبط النص، وتوضيحه بعلامات الترقيم ليكون سهلا للقارئ.

وقد عملتُ - بإذن من شيخنا الحجوجي - على مراجعة النص من الناحية الشكلية، وتصحيح بعض ما طاله بصري مما عزب عن بصر غيري، ثم قدمته بفهرسة المؤلف - رحمه الله - المسماة: "كنز اليواقيت الغالية في الأسانيد العالية"، وهي فهرسة أجاز بها شيخنا مفتي تونس العلامة محمد الشاذلي النيفر رحمه الله، في رحلتهما للحج عام 1366، تلك الفهرسة التي زودني بها مشكورا أخي العلامة الشيخ أحمد منصور قرطام، حفظه الله، فرأيت أنه من المناسب جدا تصدير هذا الكتاب بها؛ لما أحاطت به من السيرة العلمية للمؤلف رحمه الله، ولأن نشرها يعد نشر عمل آخر من أعمال الحافظ الحجوجي، تلك الأعمال التي آلينا على أنفسنا الدعوة والمشاركة في نشرها.

والنسخة التي توصلت بها واعتمدتها، هي نسخة مكتوبة بخط مغربي أندلسي جميل، وعليها تعاليق وتصحيحات بخط المؤلف - رحمه الله - غير أن بها تصحيفا في العديد من المواضع، ما اضطرني إلى الرجوع إلى أصولها من كتب الإسناد؛ كحصر الشارد من أسانيد محمد عابد؛ للحافظ محمد عابد السندي، و"فهرس الفهارس والأثبات" للحافظ الشيخ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، و"فهرس السفاريني الحنبلي"، و"برنامج المُجاري" الغرناطي، وثبت أبي طاهر السلفي، و"البحر العميق في مرويات ابن الصديق" للحافظ أحمد بن الصديق الغماري...وغير ذلك من المصادر والمراجع.

ونروي سائر مؤلفات الحافظ الحجوجي بأسانيد؛ منها: عن نجله العلامة سيدي محمد الحجوجي، وعلامة تونس الشيخ الشاذلي النيفر عنه مباشرة.

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب، ويكتب له ولسائر أعمال الحافظ الحجوجي - رحمه الله - القبول، فإننا نحب هذا الرجل، ونجله، لأنه عالم عامل،

وورع صالح، وداعية إلى الله، حري بنا أن نقتفي أثره، وننسج على غرزه، رحمه الله وأجزل له المثوبة بمنه وكرمه. وصلى الله على سيدنا محمد الفاتح الخاتم، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وكتبه:

الشريف محمد حمزة بن محمد علي بن محمد المنتصر بالله الكتاني

في 17 جمادى الأولى عام 1430

الموافق: 11 مايو عام 2009

الرباط – المغرب

Hamza.kettani@gmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد الفاتح الخاتم وآله وسلم

الحمد لله الذي أطلَع في سماء الكون شمسَ المعارف، وأمدَّ منها كل الخلائقِ التالدَ منها والطارف، وألبسها من مكنون مواهبه أسرارَ اللطائف، وتوجها بتاج عِزه فحجتْ إليه سائرُ العوالم ما بين ساعٍ وطائف، وجعلها مَحط رحالِ القاصدينَ إليه، ومُرادَ المتوكلين عليه، فطوبى لمنِ التجأ إليها يأمَن سائرَ المخاوف، صلى الله وسلم على هذه الدرةِ اليتيمة، والصدَفة العظيمة، نَسمة مَن لولاه ما وُجدت الأكوان، ولا تشرف نوعُ الإنسان، ولا اقتطف زهرَ الأجنان قاطف، مَن أشرقت أعلامُ نبوته، ولمعت لوامعُ براهينِ رسالتِه، فما صرفَها عن بَث الشريعة صارف، مَوردُ الحقائق الأزليةِ ومَصدرُها، وجامعُ جوامعِ مُفرداتها ومِنبَرها، لا يُكدر بحرَ معارفه وكاءُ غارف، شفاءُ القلوب الصديَّة، المتحلي بالشمائل النقِية، وَعلى آله وأصحابِه التابعينَ منهاجَه القويم، وصراطَه المستقيم، القائمينَ في خدمة جنابِه ما بينَ جالسٍ وواقف، اَلهادين مِن الكفر الجبالَ الرواس، حتى نَسَفوها نسفا وحكَموا بالعدل وأقاموا القسْطاس، حتى تركوا الحنيفيةَ السمحا مؤسسةَ المباني ومُحْكمةَ المواقف.

أما بعد، فيقول أفقرُ العبيدِ إلى مَولاه الغنِي، محمدُ بنُ محمدٍ الحجوجي الحسني: هذه لطائفُ رَبانية، ومواهبُ رَحمانية، وفوائدُ وتنبيهات، وفرائدُ

وتتميمات، شرحْنا بها نظمَ سيدِنا الشريف الأريب، العالِمِ العلامةِ الأديب، النحرير المحققِ المتفننِ المدقق، خاتمةِ الجهابذَة الأعلام، المحب في جانب نبينا عليه الصلاة والسلام، أبي زيدٍ سيدي عبدِ الرحمان العراقي الحسني رحمه الله تعالى ورضي عنه، المُسمى: **بـــ تلخيص الشمائل النبوية، في مدح خير البرية**، وهو من أجلِّ ما ألف في شمائله ﷺ، أجاد فيه وأفاد، وأفصح عن الحقيقة وبين المراد، شرحا لم يطلبه مني طالب، ولا رغب فيه إلي راغب، أودعْتُه من الدرر والجواهر، ما تُذعن إليه أربابُ البصائر، فدونَكَه عروسا تُجْلى، كشفت لثامَها فصار حسنُها يُتْلى:

مـــا زُوجـــتْ قَـــط وهْـــي للـــنَّداما تُجْلـــى كمـــا تَنجلـــي العَـــروسُ

عَطَّر بعبير شذاه الأنفاس، وسَحَرَ بسحره الحلال النبلاءَ الأكياس، فاح يفخر على أبناء جنسِه، وغردَ وهو غائب عن حِسه، ذي المعالي فلْيَعْلُوَنْ مَن تعالى، هكذا هكذا هكذا وإلا فلا لا. فجاء والحمدُ لله شرحا بديعَ الشكل والمِثال، عجيبَ الصنعِ والمِنوال، افتض ختامَه، وأزال خمارَه ولثامَه، فصار به بَهجةً للناظرين، وعرضَةً للعاشقين.

هذا وإني وربِّ الكعبة مزْجي البضاعة، لا عِلم لي بالصناعة، مُعترفٌ بالعجز والمُخالفة والقُصور، وعدمِ معرفةِ السبلِ السالمة مِن حُب الظهور، متكاسلٌ عما أمِرتُ به مِن فعل الجميل، متصف بما في الماضي قيل: «من تعدى طوره، وتكلف ما ليس في وسعه، عجب الناس من حمقه"، لكن التطفل على السادات الكبراء أمر محبوب، والخوض معهم في بحار العلوم مع عدم معرفة السباحة يؤدي إلى المطلوب، ثم إني آمر الواقف عليه أن يصفح عما تخطه الأقلام، وتزل به الأقدام، ويستحضر أن الجواد قد يكبو، وأن الصارم قد ينبو، وأن الإنسان محلُّ النسيان والهفوات، وأن ﴿ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: 114]:

ومَـن ذا الـذي تُرضـى سَـجاياه كُلهـا وإنْ كـان، حاشا المُصطفى، فائقَ النبْلِ

وقد أنشد سلطان العاشقين الفارضي في خلوته بيتَ الحريري وهو:

مَـــن ذا الـــذي مـــا ســـاءَ قَـــطْ ومَـــن لَـــه الحُـــسنُ فَقَـــطْ

فسمع هاتفا يجيبهُ، وهو لا يرى شخصه، بهذا البيت:

محمـــــد الهـــــادي الـــــذي علـــــيه جبـــــريلُ هَـــــبطْ

ونقل سيدي محمد بن عبد الباقي الزرقاني أوائل شرحه على المواهب ما نصُّه: «قال ابن عبدوس النيسابوري: لا أعلم في الدنيا كتابا سلم إلى مؤلفه ولم يتتبعه من يليه». وقال المزني: «قرأت كتاب الرسالة على الشافعي ثمانين مرة، فما من مرة إلا وكان يقف على خطإ ويقول: هيه، أبى الله أن يكون كتابا صحيحا غير كتابه». ويتحقق لك هذا بقوله: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: 82]. فقد سجل الحكم على غير كتابه تعالى بوجود الاختلاف فيه، «ولا عطر بعد عروس». ونقل السيوطي آخر كتابه أنموذج اللبيب عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كل يؤخذ من قوله ويُترَك إلا النبي ﷺ».

وقال العارف الشعراني ﷺ في المنن ما نصه: "ومما مَن الله تعالى به عليَّ عدمُ إتعاب سري في تحرير كتاب من مؤلفاتي لعلمي بأن البشر ولو بالغ في كتابه، وحرره أشد تحرير فلا بد من نسيانه شرطا للمسألة، مثلا في بعض الأوقات، أو إطلاقه حكما في محل التفصيل، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: 82]، ولذلك قال الشيخ محيي الدين بن العربي ﷺ: «ما صَنفت قط كتابا عن تدبير ولا عن رؤية، إنما أكتبه بحسب ما يلهمني الله تعالى على يد ملك الإلهام، وربما ذكرت مسألة مع غير جنسها بحسب الإلهام كما في قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة: 238] فإنه تعالى ذكرها بين آيات طلاق وعدة، تتقدمها وتتأخرها».

واعلم يا أخي أن السبب في كون البشر لا يسْلم كلامُه من التناقض غالبا عدمُ اليقظة الدائمة، ووقوعه في الغفلة والسهو، فما كل وقت يمكنه أن يستحضر جميعَ توابع تلك المسألة، وربما ترجحَ عنده في وقت ما لم يترجح عنده في وقت آخر.

وكان سيدي أحمد الزاهد رحمه الله تعالى يقول: «مِن الآداب أن لا يجهد العبد في تحرير كتابه هروبا من مضاهاة كلام الله ﷻ ما أمكن، وحتى يجد مَن بعده في كلامه ما يحتاج إلى الحل مثلا، فيشرحه أو يعمل عليه حاشيته، فمن فعل ذلك فهو أبعد من الزهو والعجْب»"، انتهى كلام العارف الشعراني ﷺ.

ولما تم بحمد الله تعالى، ترجمته **بالمنح الوهبية، على تلخيص الشمائل النبوية**، وقدمته بمقدمة، جامعة لخيرات مهمة، مشتملة على مطالب، لتكون تمهيدا لكل راغب وطالب:

- **المطلب الأول:** في تفضيله ﷺ على سائر المخلوقات وبيان أنه خاتم النبيين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، وممد جميع العالمين.
- **المطلب الثاني:** في تكريم الله تعالى له بأن لم يجعل له في آبائه من مولانا عبد الله عليه السلام إلى آدم عليه السلام سِفاح، وأنهم موصوفون بالكمال والفلاح.
- **المطلب الثالث:** في مولده ﷺ.
- **المطلب الرابع:** في أسمائه ﷺ وكناه.
- **المطلب الخامس:** في بعض ما أظهر الله على يديه من المعجزات، والكرامات الخارقات.
- **المطلب السادس:** في بعض خصائصه صلى الله عليه وسلم.
- **المطلب السابع:** في عصمته تعالى له وأنه كافيه.
- **المطلب الثامن:** في كمال أدبه ﷺ مع الحضرة العلية.
- **المطلب التاسع:** في أن في معرفة أوصافه ﷺ فوائد.
- **المطلب العاشر:** في التعريف بالناظم وما يتعلق بالقصيدة، وهذا أوان الشروع في المقصود؛ معتمدين على ذي الكرم والجود، متوسلين بخير الأنام، صاحب المزايا العظام، متبرئين من القوة والحول، مستندين على ذي المنة والطَّوْل.

مقدمة

وتشتمل على مطالب عشرة:

المطلب الأول

وانحصر الكلام فيه في سابقة ولاحقة

فأما السابقة:

فاعلم، وفقنا الله وإياك، وجعل الجنةَ مثوانا ومثواك، أن مولانا رسولَ الله ﷺ أفضلُ المخلوقات على الإطلاق، عند جميع من يُعتد بإيمانه ويُثاق، وقد حَكى الإجماعَ على ذلك غيرُ واحد مِن أئمة المسلمين، والهُداة المتقين:

فمِمن حكى ذلك الإمام، حُجةُ الأنام، فَخر الدين الرازي، وابنُ السبكى، وسراجُ الدين البلقيني، قال النبراوي في حاشيته على الأربعين النووية: «ودخل في المخلوقات القرآن العظيم، فهو ﷺ أفضل منه على ما هو الحق». ومراده بالقرآن الألفاظ المقروءة المتعبَّد بتلاوتها، وأما المعنى القديم الذي هو صفة الله تعالى فليس كذلك قطعا.

وممن حكى الإجماعَ على ذلك الإمامُ المقري فإنه قال:

وانعقــدَ الإجمــاعُ أن المُــصطفى أفــضلُ خَلــق الله والخُلْــفُ انتفــى
ومــا انتَحــى الكــشافُ فــي التكويــر خِــلاف إجمــاعِ ذوي التنْويــر

وقوله: "خلاف إجماع ذوي التنوير " يشير إلى أن المقصود إجماع من يُعتَدُّ به. وأما ما قاله الكشاف في سورة التكوير، فلا عبرة به عند العقلاء أهلِ الذكاء والفطنة والتنوير.

فلــيس كُــل خــلافٍ جــاءَ مُعتَبَــرا إلا خِــلافٌ لــه حَــظ مِــنَ النظَــرِ

ويرحم الله سيدي حمدونَ ابنَ الحاج إذ يقول:

جَرى صاحبُ الكشافِ في غَير مَهيَعٍ وَلا حَــرَجٌ عَلــيه أعْمــى وأعْــرَجُ

قالوا وقد انفرد الزمخشري بهذا القول، وجهل فيه حتى مذهبه هذا، وقد وردت

آيات وأحاديثُ دالة على ذلك، فمن ذلك ما في "المواهب"، قال الله تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: 253]، قال المفسرون: يعني موسى عليه الصلاة والسلام كَلَّمه بلا واسطة، وليس نصا في اختصاص موسى بالكلام، وقد ثبت أنه كلم نبينا أيضا.

فإن قلت: إذا ثبت أنه عليه السلام كلمه ربُّه بلا واسطة وقام به هذا الوصف، فلِمَ لم يشتقَّ له من الكلام اسمَ الكليم كما اشتق لموسى؟ أجيبُ بأن اعتبار المعنى قد يكون لتصحيح الاشتقاق، كاسم الفاعل لملاحظة صحة استعماله بالنظر لمبدإ الاشتقاق دون غيره.

فلا يلزم في كل من قام به ذلك الوصف أن يشتق له منه اسم كما حققه عضد الدين، قال النسفي في تفسيره ما نصه: «قال موسى: يا رب أنا كليمك ومحمد ﷺ حبيبك، فما الفرق بين الحبيب والكليم؟ فقال تعالى: الكليم يعمل برضى مولاه، والحبيب يعمل مولاه برضاه، والكليم يحب الله، والحبيب يحبه الله، والكليم يأتي إلى طور سيناء ثم يناجى، والحبيب ينام على فراشه فيأتي به جبريل إلى مكان في طرفة عين لم يبلغه أحد من المخلوقين».

رجع:

ثم قال في المواهب: «قال الله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ [البقرة: 253]، يعني محمدا ﷺ من ثلاثة أوجه: بالذات في المعراج، وبالسيادة على جميع البشر، وبالمعجزات لأنه عليه الصلاة والسلام أوتي من المعجزات ما لم يؤت نبي قبله. قال الزمخشري: وفي هذا الإبهام، أي في الآية من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى لما فيه من الشهادة على أنه العَلَم الذي لا يشتبه، والمتميز الذي لا يلتبس». قال شارح المواهب بعده: «وهو كلام حسن لكنه أساء بعده»، ثم ذكر وجه الإساءة، فانظره. وقد بينت هذه الآية، وكذا قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [الإسراء: 55] أن مراتب الأنبياء متفاوتة خلافا للمعتزلة.

والتفضيل في الدنيا على ثلاثة أوجه: أن تكون آيته ومعجزاته أظهر وأشهر، أو

تكون أمته أزكى وأكثر، أو يكون في ذاته أفضل وأظهر. وفضله في ذاته راجع إلى ما خصه الله تعالى من كرامته واختصاصه من كلام أو خلة أو رؤية أو ما شاء الله من ألطافه وتحف ولايته واختصاصه. ولا شك أن آيات نبينا ﷺ ومعجزاته أظهر وأبهر، وأكثر وأبقى وأقوى، ومنصبه أعلى، ودولته أعظم وأوفر، وذاته أفضل وأظهر، وخصوصياته على جميع الأنبياء أشهر من أن تذكر. فدرجته أرفع من درجات المرسلين، وذاته أزكى وأفضل من سائر المخلوقين. وتأمل حديث الشفاعة في "المحشر"، وانتهائها إليه، وانفراده هناك بالسؤدد.

واستدل سعد الدين التفتزاني الشافعي لمطلق أفضليته عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110] قال: «لأنه لا شك أن خير الأمم بحسب كمالهم في الدين وذلك تابع لكمال نبيهم الذين يتبعونه». واستدل فخر الدين الرازي في معالم التنزيل على أفضليته بأنه تعالى وصف الأنبياء بالأوصاف الحميدة ثم قال لمحمد ﷺ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90] فأمره أن يقتدي بأثرهم فيكون إتيانه به واجبا، وإلا فيكون تاركا للأمر. وإذا أتى بجميع ما أوتوا به من الخصال الحميدة فقد اجتمع فيه ما افترق فيهم، فيكون أفضل منهم، وبأن دعوته عليه الصلاة والسلام في التوحيد والعبادة وصلت إلى أكثر بلاد العالم بخلاف سائر الأنبياء، فوجب أن يكون أفضل سائر الأنبياء.

وقد روى الترمذي وقال: «حسن صحيح»، وأحمد، وابن ماجة، وصححه الحاكم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من بني آدم فمن سواه إلا تحت لوائي».

فإن قلت: هذا لا يدل على أفضليته على آدم بل على أولاده فقط، قلت: يؤخذ ذلك من آخر الحديث، ويؤخذ صراحة مما رواه البخاري مرفوعا، ومسلم، والترمذي، وأحمد عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد. . . «فذكر حديث الشفاعة بطوله، ولا شك أن من جملة من يدخل في الناس آدم.

وروى البيهقي في فضائل الصحابة أنه ظهر علي بن أبي طالب من البعد فقال ﷺ: «هذا سيد العرب، فقالت عائشة: ألست يا رسول الله بسيد العرب؟ قال: أنا سيد العالمين وهو سيد العرب». وهو يدل أيضا لما ذكر ولم يقل هذا ﷺ افتخارا على من دونه، حاشاه ﷺ من ذلك، وإنما قاله إظهارا لنعمة الله عليه وإعلاما للأمة بمقدار إمامهم ومتبوعهم عند الله، وعلو منزلته لديه، لتعرف نعمة الله عليهم وعليه.

وكذلك أي عبد من عباد الله إذا لاحظ ما هو فيه من فيض المدد، وشهوده من عين المنة ومحض الجود، وشهد مع ذلك فقره إلى ربه في كل لحظة وعدم استغنائه في كل طرفة عين، أنشأ له ذلك في قلبه عجائب النور، فإذا انبثَّت هذه السحائب في سماء قلبه، وامتلأ قلبه بها، مطرت عليه وابل الطرب مما هو فيه من لذيذ السرور، ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ [البقرة: 265]، وحينئذ يجري على لسانه الافتخار من غير عجْب ولا فخر، بل هو فرح بفضل الله وبرحمته كما قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [يونس: 58]، وإلى هذا المعنى يشير علي الوفا في قصيدته:

مَن أنتَ مَولاه حاشا ... عُلَاه أنْ يَتلَاشا
واللهِ يا روحَ قلبي ... لا ماتَ مَن بِك عاشا
قَوم لَهم أنتَ ساقٍ ... لَا يَرجِعون عطاشا
لَا قَص دَهرٌ جَناحا ... لَه وَفاؤُك راشا
بك النعيمُ مقيم ... لمَن وَهبتَ انتِعاشا
ومَن بحَولك يَقوى ... لن يُضعفَ الدهرُ جاشا
عَبد لَه بك عِز ... فكَيف لا يَتحاشا
حاشا وَفاؤك يَرمي ... مَن أنتَ مَولاه حاشا
جَرى صاحبُ الكشافِ في غَير مَهيَعٍ ... جَرى صاحبُ الكشافِ في غَير مَهيَعِ

فإن قلت: ما الجمع بين الآيتين المتقدمتين، وبين قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ [البقرة: 136]، إلى قوله: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 84]، وبين الحديث الثابت في الصحيحين عن أبي

هريرة ﷺ قال: «استَبَّ رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال اليهودي في قَسَمه: لا والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفَع المسلمُ يدَه فلَطَمَ اليهودي فقال: أيُّ خبيث، وعلى محمد؟ فجاء اليهودي إلى رسول الله ﷺ واشتكى على المسلم، فقال ﷺ: لا تفضلوني على الأنبياء»؛ وبين حديث البخاري ومسلم أيضا عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه ﷺ قال: «لا تخيروا بين الأنبياء»؛ وبين حديث البخاري ومسلم أيضا عن ابن عباس مرفوعا: «ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»؛ وبين حديث الشيخين أيضا عن أبي هريرة ﷺ: «من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب».

قلت: أجاب العلماء عن الآية بأن قوله تعالى: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة: 136] يعني في الإيمان بما أنزل إليهم، وفي التصديق بأنهم رسل الله، وأنبياؤه، والتسوية بينهم، في هذا لا يمنع أن يكون بعضهم أفضل من بعض. وأجابوا عن الأحاديث المتقدمة بأجوبة، فقال بعضهم:

«نعتقد أن الله تعالى فضل بعضهم على بعض في الجملة، ونكف عن الخوض في تفصيل التفضيل بآرائنا». قال ابن ظفر: «فإن أراد هذا القائل أنا نكف عن الخوض في تفصيل التفضيل بآرائنا فصحيح، وإن أراد أنا لا نذكر ما فهمناه من كتاب الله ورُوي لنا من حديث رسول الله ﷺ فسقيم».

وقال آخر: «نفضل من رفع درجته بخصائص الحظوة والزلفى، ولا نخوض في تفضيل بعضهم على بعض في سياسة المنذرين، والصبر على الدين، والنهضة في أداء الرسالة، والحرص على هدى الضلال، فإن كلا قد بذل في ذلك وسعه الذي لا يكلفه الله أكثر منه».

وقال آخر: «مما ذكره عياض في الشفا أن نهيه ﷺ كان قبل أن يعلم تفضيله، والتفضيل يحتاج إلى توقيف، ومن فضل بلا علم فقد كذب». لكن قال الحافظ ابن كثير: «فيه نظر، ولعل وجهه من جهة معرفة المتقدم تاريخا من ذلك ». قال في المواهب: «ثم رأيت في تاريخ ابن كثير أن وجه النظر من جهة أن هذا من رواية أبي سعيد الخدري وأبي هريرة، وما هاجر أبو هريرة إلا عام خيبر، فبعيد لم يعلم بهذا

إلا بعد هذا».

وقال بعض: «إنما قال ذلك ﷺ على طريق التواضع ونفْي الكبر والعجب»؛ لكن قال عياض: «هذا لا يسلم من الاعتراض". وحكى عياض أيضا قولا آخر وهو أنا لا نفضل بعضهم تفضيلا يؤدي إلى تنقيص بعضهم أو الغض منه، وذكر أيضا قولا آخر وهو أن منع التفضيل إنما هو في حق النبوءة والرسالة فإنهم فيها على حد السواء، لا نفاضل بينهم فيها، والتفاضل إنما يحصل في الأحوال والكرامات والرتب، ولهذا كان منهم رسل وأولو العزم. وهو قريب من القول الثاني.

وقال ابن أبي جمرة في حديث يونس عليه السلام: "يريد بذلك نفي التكييف والتحديد على ما قاله الخطيب الرازي، لأنه قد وجدت الفضيلة بينهما في عالم الحس لأن النبي ﷺ أسري به إلى فوق السبع الطباق، ويونس نزل إلى قعر البحر وقد قال عليه السلام: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة»، وقال عليه السلام: «آدم فمن دونه تحت لوائي»".

وقد اختص ﷺ بالشفاعة الكبرى التي لم تكن لغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهذه الفضيلة وجدت بالضرورة، فلم يبق أن يكون قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تفضلوني على يونس بن متى» إلا بالنسبة إلى القرب من الله سبحانه، والبعد بمحمد ﷺ، وإن أسري به لفوق السبع الطباق، واخترق الحجب، ويونس عليه الصلاة والسلام وإن نزل قعر البحر، فهما بالنسبة إلى القرب والبعد منه سبحانه على حد واحد. وهو مروي عن الإمام مالك، وعزي نحوه لإمام الحرمين.

وقال ابن حنين في معراجه: «إن قلت: إن لم يفضل على يونس باعتبار استواء الجهتين بالنسبة إلى وجود الحق تعالى، فقد فضله باعتبار تفاوت الجهتين في تفضيل الحق، فإنه تعالى فضل الملأ الأعلى على الحضيض الأدنى، فكيف لا نفضله عليه السلام على يونس عليه السلام؟ فإن لم يكن التفضيل بالمكان فهو بالمكانة، أي الرفعة وعلو المنزلة بلا إشكال». ثم قال: «قلت لم ينه عن مطلق التفضيل، وإنما عن تفضيل مقيد بالمكان الذي يفهم منه القرب المكاني، فعلى هذا يحمل جمعا بين القواعد».

فائدة:

روى ابن جرير الطبري في تفسيره، وأبو يعلى والطبراني من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني جبريل فقال: إن ربي وربك يقول: تدري كيف رفعت ذكرك؟ يعني بها قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ ﴾ [الشرح: 4]، قلت: الله أعلم، قال: إذا ذُكِرْتُ ذُكرتَ معي». وقد صحح هذا الحديثَ ابنُ حبان والضياءُ المقدسي في الأحاديث المختارة.

وروى الإمام الشافعي عن سفيان بن عيينة عن عبد الله بن أبي نجيم: «معنى لا أذكر إلا ذكرت معي: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله». قال الشافعي: «يعني ذكره عند الإيمان وفي الأذان ويحتمل أن يكون المراد ذكره عند تلاوة القرآن، وعند العمل بالطاعة، والوقوف عن المعصية». وقيل رفعه بالنبوءة، قاله يحيى بن آدم بن سليمان الكوفي.

وعن ابن عطاء: «جعلتك ذكرا من ذكري، فمن ذكرك ذكرني، وجعلت تمام الإيمان بذكري معك». وعن جعفر بن محمد الباقر: «لا يذكر أحد بالرسالة إلا ذكرني بالربوبية»، قال البيضاوي: «وأيّ رفع مثل أن قرن اسمه باسمه في كلمتي الشهادة، وجعل طاعته طاعته؟».

وذكره سبحانه وتعالى معه في الشهادة والتشهد وفي القرآن والخطب والأذان، ويؤذن باسمه يوم القيامة، وكتب اسمه الشريف على العرش وعلى كل سماء وعلى الجنان وما فيها، رواه ابن عساكر عن كعب الأحبار.

وأخرج البزار عن ابن عمر مرفوعا: «لما عُرج بي إلى السماء، ما مررت بسماء إلا وجدت اسمي فيها مكتوبا: محمد رسول الله». وفي الحلية عن ابن عباس رفعه: «ما في الجنة شجرة عليها ورقة إلا مكتوب عليها: لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

وشق اسمه الكريم من اسمه تعالى كما قال حسان:

وشُـــق لَـــه مِـــنِ اســـمِه لـــيُجله فـذو العَـرش مَحمـود وَهـذا مُحمـدُ

وصلى عليه في ملائكته، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه والتسليم فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٥٦ ﴾ [الأحزاب: 56].

وكتبه نبيا وآدم بين الروح والجسد، وختم به النبوءة والرسالة، وأعلى بذكره الكريم في الأولين والآخرين، ونوه بقدره الرفيع حين أخذ على النبيين الميثاق، وجعل ذكره في فواتح الرسائل وخواتمها، وشرف به الخطباء على المنابر، وزين بذكره أرباب الأقلام والمحابر، ونشر ذكره في الآفاق شرقا وغربا، وبحرا وبرا، حتى في السماوات السبع وعند المستوى، وصريف الأقلام وسائر الملائكة المقربين، من الكروبيين والروحانيين، والعلويين والسفليين، وجعله في قلوب المؤمنين فترتاح أرواحهم، وربما تميل من طرب سماع اسمه أشباحهم:

وإذا ذَكَـــرتكُمُ أمـــيلُ كأننـــي مِـن طـيب ذِكـرِكمُ سُـقيتُ الـراحا

كأنه تعالى يقول: «أملأ الوجود كله من أتباعك، كلهم يثنون عليك ويصلون عليك، ويحفظون سنتك، بل ما من فريضة من فرائض الصلاة إلا ومعها سنة، فهم يتمسكون في الفريضة بأمري، وفي السنة بأمرك، وجعلت طاعتي طاعتك، وبيعتي بيعتك، فالقراء يحفظون ألفاظ منشورك، والمفسرون يفسرون معاني قراءتك، والواعظ يبلغ بليغ لفظك، والملوك والسلاطين يقفون في خدمتك، ويسلمون عليك من وراء الباب، ويمسحون وجوههم بتراب روضتك، ويرجون شفاعتك، فشرفك باق أبدا، وعزك في الوجود زائد سرمدا»:

فأنـــت رَســـول الله أعظـــم كـــائن وأنـــتَ لكـــل الخلـــق بالحـــق مرســـل
علـيك مـدارُ الخلـق إذ أنـت قطـبه وأنـــتَ مـــنارُ الحـــق يعلـــو ويعـــدل
فـــؤادك بـــيتُ الله دار علـــومه وبـــاب علـــيه مـــنه للحـــق يـــدخل
ينابـــيع علـــم الله مـــنه تفجـــرت ففـــي كـــل حـــي مـــنه لله مـــنهل
مـنحت بفـيض الفـضل كـل مفـضل فكـــل لـــه فـــضل بـــه مـــنك يفـــضل
نظمـــت نـــثار الأنبـــياء فـــتاجهم لـــديك بأنـــواع الكمـــال مكلـــل
فـــيا مـــدة الإمـــداد نقطـــة خطـــهِ ويـــا ذرة الإطـــلاق إذ يتسلـــسل
محـال يحـول القلـب عـنك وإننـي وحقـــك لا أســـلو ولا أتحـــول
علـــيك صـــلاة الله مـــنه تواصـــلت صـــلاة اتـــصال مـــنك لا تتنـــصل

ونذكر هنا قول البوصيري في بردته:

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفا من البحر أو رشفا من الديم
وواقفون لديه عند حدهم من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

وقال سلطان العاشقين الفارضي:

لولاك يا أحمد المبعوث ما طلعت شمس ولم تخرج الدنيا من العدم

ولابن وفا:

روح النهى، قطب العوالم كلها لولاه ما تم الوجود لمن وجد

أما كونه ﷺ خاتم النبيين فقد دلت عليه آيات وأحاديث، قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: 40]، وأخرج البخاري في صحيحه عنه ﷺ خطابا لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي»؛ وأخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ﷻ كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء»، ومن جملة ما كتب في الذكر وهو أم الكتاب أن محمدا خاتم النبيين.

وعن العرباض بن سارية السلمي عن النبي ﷺ قال: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته»، رواه الإمام أحمد والبيهقي والحاكم وقال الحاكم: صحيح الإسناد. وروى ابن أبي الحاتم في تفسيره وأبو إسحاق الجوذقان في تاريخه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كنت أول الأنبياء خلقا وآخرهم بعثا».

وفي المواهب: «روينا في جزء من أمالي أبي سهل القطان، عن سهل بن صالح الهمذاني قال: سألت أبا جعفر بن علي كيف صار محمد ﷺ يتقدم الأنبياء وهو آخر من بعث؟ قال: إن الله تعالى لما أخذ الميثاق من بني آدم من ظهورهم وذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ كان محمد ﷺ أول من قال: بلى، ولذلك صار محمد ﷺ يتقدم الأنبياء وهو آخر من بعث».

فإن قلت: مما يجب اعتقاده أن سيدنا عيسى ﷺ نبي وهو ينزل في آخر الزمان

حيا بجسده ويجاهد الكفار، فهو نبي أتى بعده، قلنا: الجواب عن ذلك أنه لما كان يحكم بشريعة نبينا وبسنته صار كأنه مجتهد في الملة المحمدية كالأئمة الأربعة والإمام المهدي.

فإن قلت: قد تقرر أنه لا يأخذ الجزية، ومعلوم أن أخذ الجزية من شرع نبينا، فقد خالف شريعتنا، قلت: ثمرة أخذ الجزية الاستعانة بها على قتالهم، ومعلوم أن آخر الزمان يكثر المال ولا يحتاج إليه المسلمون، فلا فائدة إذاً في أخذها، والله أعلم.

ثم إن كون نبينا ﷺ آخر النبيين بعثة وأولهم نبوءة أمر معلوم ضروري:

ألا بأبي مَن كان ملكا وسَيدا ... وآدمُ بينَ الماء والطينِ واقفُ
فذاك الرسولُ الأبطحي محمدٌ ... له في العلا مجد تليد وطارف
أتى بزمان السعد في آخر المدى ... وكان له في كل عصر مواقف
أتى لانكسار الدهر يجبر صدعه ... فأثنت عليه ألسن وعوارف
إذا رام أمرا لا يكون خلافه ... وليس لذاك الأمر في الكون صارف

فإن قلت: النبوءة وصف، والوصف لا بد له من محل يقوم به وهو كونه موجودا، وبعد وجوده فلا بد من بلوغه أربعين سنة إذ هي سن الكمال، وهذا عام في جميع الأنبياء حتى في عيسى. وأما كونه رفع وهو ابن ثلاثة وثلاثين فإنه لا يعرف له أثر متصل به يجب المصير إليه. قال الشامي: «إن هذا إنما هو مروي عن النصارى، والمصرح به في الأحاديث النبوية إنما رفع وهو ابن مائة وعشرين سنة». أخرج الطبراني في الكبير بسند رجاله ثقاة عن عائشة أنه ﷺ قال في مرضه الذي توفي فيه لفاطمة: «إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل عام مرة، وأنه عارضني بالقرآن العام مرتين، وأخبرني أنه لم يكن نبي إلا عاش نصف الذي قبله، وأخبرني أن عيسى ابن مريم عاش عشرين ومائة سنة، ولا أراني إلا ذاهبا على رأس الستين»، انتهى نقله في شرح المواهب.

قلت: أجاب الغزالي رحمه الله في كتابه " النفح والتسوية " عن قوله ﷺ: «كنت نبيا وآدم. . . . «إلى آخر الحديث، وعن قوله ﷺ: «كنت أول الأنبياء خلقا وآخرهم

بعثا»، فإن المراد بالخلق هنا التقدير دون الإيجاد، فإنه قبل أن ولدته أمه لم يكن موجودا مخلوقا، ولكن الغايات والكمالات سابقة في التقدير، لاحقة في الوجود، قال: وهو معنى قولهم: أول الفكرة آخر العمل، وآخر العمل أول الفكرة، يشير إلى قول القائل:

نِعْـــمَ مـــا قـــال زمـــرةُ الأولِ أولُ الفكْـــــر آخـــــرُ العمَـــــلِ

وتعقب ما للغزالي بما للتقي السبكي من أنه قد جاء أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد، فتكون الإشارة بقوله: «كنت نبيا» إلى روحه الشريفة أو إلى حقيقة من الحقائق، والحقائق تقصر عقولنا عن معرفتها، وإنما يعلمها خالقها ومن أمده الله بنور إلهي.

ثم إن تلك الحقائق يؤتي الله كل حقيقة منها ما شاء في الوقت الذي يشاء؛ فحقيقة النبي ﷺ قد تكون من حين خلق آدم، آتاها الله ذلك الوصف بأن يكون خلقها متهيئة لذلك، وأفاضه عليها من ذلك الوقت، فصار نبيا، وكتب اسمه على العرش، وأخبر عنه بالرسالة ليعلم ملائكته وغيرهم كرامته عنده. فحقيقته موجودة من ذلك الوقت وإن تأخر جسده الشريف المتصف بها، واتصاف حقيقته بالأوصاف الشريفة المفاضة عليه من الحضرة الإلهية. وإنما يتأخر البعث والتبليغ وكل ما له من جهة الله، ومن جهة تأهل ذاته الشريفة وحقيقته معجل لا تأخر فيه. وكذلك استنباؤه وإيتاؤه الكتاب والحكم والنبوءة، وإنما المتأخر تكونه وتنقله إلى أن ظهر ﷺ.

وقد علم من هذا أن ما قال في علم الله بأنه يصير نبيا لم يصل إلى هذا المعنى، لأن علم الله محيط بجميع الأشياء. ووصف النبي ﷺ بالنبوءة في ذلك الوقت، ينبغي أن يفهم منه أنه أمر ثابت له في ذلك الوقت ولو كان المراد بذلك مجرد العلم بما سيصير في المستقبل، لم يكن له خصوصية بأنه «نبي وآدم بين الروح والجسد»، لأن جميع الأنبياء يعلم الله نبوتهم في ذلك الوقت وقبله، فلا بد من خصوصية للنبي ﷺ لأجلها أخبر بهذا الخبر إعلاما لأمته ليعرفوا قدره عند الله تعالى.

كذا رد صاحب المواهب على الغزالي بما للسبكي، ورد ذلك شارح المواهب بأنه إنما عبر بالتقدير، وهو مرتبة غير العلم، يجوز أنه اختص به قبل خلق آدم دون

بقية الأنبياء، فلا يتم رده. ويحتمل أن مراد السبكي الرد على غير الغزالي وهو ظاهر قوله: «ومن فسر دون من قدر». انظر تمام كلام شارح المواهب، فظهر أن نبينا محمدا ﷺ هو خاتم النبيين وأفضلهم عند رب العالمين.

قيل: معنى كونه ﷺ خاتم النبيين أن الله تعالى به ختم النبوءة، بمعنى أنه لا نبي ولا رسول بعده. وقد مثل ﷺ النبوءة ببيت كمل إلا موضع لبنة واحدة. روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأكمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة! قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين».

ثم إن العلماء مثلوا النبوءة بدائرة متآلفة من نقط، ووجود النقطة الأخيرة هو المتمم لتلك الدائرة والمظهر لحقيقتها بجميع أوصافها. وقد ذكروا لكونه ﷺ خاتم النبيين فوائد:

- منها دوام شريعته إلى أن تقوم الساعة، فلا تنسخها شريعة.
- ومنها وراثته لما تفرق في الأنبياء قبله، ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: 90].
- ومنها الستر على أمته لئلا يطلع أحد من الأمم السابقة على مساوئهم كما اطلعوا هم، فكانت متعظة بغيرها، لا أن الغير اتعظ بها كرامة له ﷺ.

وما عَجَبٌ إكرامُ ألفٍ لواحدٍ كَنَفسٍ تُفَدّى ألفَ نَفسٍ وتُكْرِم

وأما كونه ﷺ سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، فقد أخرج البزار حديثا عن ربه جل شأنه: «إنك سيد المرسلين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين».

ولا شك أنه ﷺ أتقى الخلق لله، وأعرفهم بربه، وأشدهم له خشية، فتقواه لا يدركها المتقون، ولا يمكن أن يعبر عنها المعبرون ومعلوم أن مراتب التقوى ثلاثة: أدناها البعد عن الشرك، وأوسطها امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، وأعلاها ترك سوء. وهو ﷺ قد بلغ الغاية القصوى في أعلاها، ففي حديث مسلم «أنا أتقاكم لله».

وكونه قائد الغر المحجلين، أي مقدمهم على من يتبعه، والغر بضم العين المعجمة جمع أغر من الغرة وهي في الأصل بياض في جبهة الفرس، والمراد بها هنا مطلق بياض الوجه. والمحجلين جمع محجل، من التحجيل وهو في الأصل بياض في قوائم الخيل، أريد به هنا بياض القوائم، وهذا البياض من الوضوء. وقد ورد في الحديث: «إن أمتي يدعون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء»، قال الشهاب الخفاجي: «والتعبير بكونه من صفات الخيل إشارة إلى أنهم جياد وسابقون على غيرهم». وورد أيضا: غرا من السجود محجلين من الوضوء. وقد جعل الله تعالى ذلك لهذه الأمة يعرفون بها يوم القيامة، وقد استدل بهذا بعضهم على أن الوضوء من خصائص هذه الأمة، والتحقيق أن المخصوص بهذه الأمة إنما هو الغرة والتحجيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وأما اللاحقة:

فاعلم أن من جملة مواهب الله على نبينا محمد ﷺ، أن جعل صورته عديمة المثال، لما احتوت عليه من صفات الحسنى والبهاء والجمال، حتى قالت مولاتنا عائشة رضي الله عنها:

وأجْملَ منك لم تر قط عيني ... وأكملَ منك لم تلد النساء
خُلقتَ مبرءا مِن كل عيبٍ ... كأنك قد خُلقت كما تشاءُ

وقال البوصيري:

منزه عن شريك في محاسنه ... فجوهر الحسنِ فيه غير منقسم

وقال الشاعر:

متى يبد في الليل البهيم جبينه ... يلُحْ مثل مصباح الدجى المتوقد
فمن كان أو من قد يكون كأحمدٍ ... نظامٌ لحَقٍ أو نكالٌ لمعتدِ

وكان أبو بكر ﷺ إذا رآه قال:

أمين مصطفى بالخير يدعو ... كضوء البدر زايلَه الظلام

وكان عمر بن الخطاب ﷺ مهما رآه ينشد لزهير:

لو كنت من شيء سوى بشرٍ ... كنت المضيء ليلة البدر

ونظرت إليه عائشة رضي الله عنها يوما ثم تبسمت فسألها: ما ذاك؟ فقالت: كأن

أبا بكر الهذلي إنما عناك بقوله:

وإذا نظـــرت إلـــى أســـرَّة وجهـــه بـــرقت كبـــرق العـــارض المـــتهلل

وفي بعض الآثار أن خالد بن الوليد خرج في سرية من السرايا، فنزل بعض الأحياء، فقال له سيد ذلك الحي: «صف لنا محمدا، فقال: أما أن أفصّل فلا، فقال الرجل: أجْمِل، فقال: الرسول على قدر المرسل»، ذكره ابن المنير في "أسرار الإسراء".

وقد حكى القرطبي في كتاب الصلاة عن بعضهم أنه قال: «لم يظهر لنا تمام حسنه ﷺ لأنه لو ظهر لنا تمام حسنه لما كانت أعيننا رأته»، وما أحسن قول البوصيري:

أعـيا الـورى فهـمُ مَعـناه فلـيس يُـرى فـي القُـرب والـبُعد فـيه غَيـر مُـنفَحِم

كالـشمس تَظهَـر للعَينَـين مِـن بعـدٍ صَـغيرةً، وتكـلُّ الطـرفَ مِـن أمـم

وهذا مثل قوله في الهمزية:

إنمـــا مَـــثَّلوا صـــفاتِك للـــنّا س كَمـــا مـــثَّل الـــنجومَ المـــاءُ

وفي آخر حديث سيدنا علي كرم الله وجهه: «يقول ناعِتُه: لم أر قبله ولا بعده مثله».

وكما أسدى له تعالى الجمال الظاهر، كذلك أعطى له ﷺ الجمال الباطني، وقد نص العلماء على أن حقيقة سيدنا رسول الله ﷺ سر لطيف من أسرار الحق تعالى لا يطلع عليه في هذه الدار نبي مرسل، ولا ملك مقرب، وإنما أدرك المؤمنون منه ظاهر صورته المحمدية. فالخلق عاجزون عن إدراك جماله الباهر، ونوره الزاهر، وعقله، وجاهه، وعلومه، وعبوديته، وخوفه، ورجائه، وزهده، وتواضعه، وشفقته، ورحمته، وجوده. قال العلماء: «إنه ﷺ كنخلة اجتمعت فيها أقوات الخلق، أصلها في الأرض وفروعها في السماء، وهي مثمرة من أرضها إلى منتهى فروعها، وكل واحد من الخلق في أخذ قوته منها حسب قُوّته ونهاية طاقته، ورأسها ممتنع عن الجميع لامتناع وصول البشر إلى السماء». وقد قال ﷺ: «لا يعرفني حقيقة غير ربي».

قال الخروبي رحمه الله تعالى: «ما أدرك الناس من حقيقة أمره وخفا سره، إلا على قدر عقولهم البشرية، فما ظهر لهم من ذلك فهو نعمة عليهم ليعرفوا قدره،

ويعظموا أمره، فهو رحمة الله بهم، إذ لو ظهر لهم مع عدم قيامهم بالحقوق لكانت فتنة لهم، والله تعالى أرسله رحمة للعالمين، فكانت النعمة فيما ظهر، والرحمة فيما استتر، والله الموفق».

وقال أبو يزيد البسطامي ﷺ: «خضت لجة المعارف لأطلع على الحقيقة المحمدية، فإذا بيني وبينها سبعون حجابا، لو دنوت من أولها لاحترقت كما تحترق الشعرة في لهب النار»، وفي رواية: «سبعون ألف حجاب».

ولا مفهوم للعدد، إذ الحقيقة المحمدية سارية في الممكنات سريان الماء في الشجر الأخضر، واستحضر قول المرسي ﷺ: «لو كشف عن حقيقة الولي لعبد، وقُلْ كيف لو كشف عن حقيقة العارف؟ وكيف لو كشف عن حقيقة الفرد الجامع؟ وكيف لو كشف عن حقيقة النبي؟ وكيف لو كشف عن حقيقة الرسول؟ فما بالك بسيد الأنبياء والمرسلين؟ ولهذا كان حجاب الله الأعظم، ووقع العجز عن إدراكها، فتضاءلت الفهوم لوصفها، فلم يدركها منا سابق ولا لاحق، ووراء هذا مهامه لا يعلمها إلا الله سبحانه»:

يقولون لي صفها فأنت بوصفها ... خبير، أجل عندي بأوصافها علم
صفاء ولَا ماء ولطف ولا هوا ... ونور ولا نار وروح ولا جسم

﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء: 85]، وما ألْيَقَ بالحال قولَ ابنِ زكري في همزيته:

كُنهُك الأحمَديُّ سِر مَصونٌ ... عَن عُلاه تَقاصَرَ العُلماءُ

وقال فيها أيضا:

قصِّر القولَ فالجَنابُ عظيمٌ ... مَن يطاولْه أعجزَتْه السماءُ
وارْضَ بالعَجز غايةً، فقديما ... عَجزَت عَن وُصولِه الشعَراءُ

وقال سلطان العاشقين:

كملتْ مَحاسنُه فلو أهْدى السَّنى ... للبَدر عِندَ كَمالِه لَم يُخسَفِ
وَعلى تَفنَنِ واصفيهِ بوَصفِه ... يَفنى الزمانُ، وفيه ما لَم يوصَفِ

ولهذا قال أُوَيْس القرني ﷺ: «والله ما رأيتم من رسول الله ﷺ إلا ظله، قالوا: ولو ابن أبي قحافة؟ قال: ولو ابن أبي قحافة، وقال: والله ما رأيتم رسول الله ﷺ إلا كالسيف في غمده».

Copyrighted material

والحاصل أن المصطفى ﷺ أعطاه الله من المنح ما لا يخطر ببال أحد، ولا يعرفه إلا مانحه الفرد الصمد:

دعْ مـا ادعَـتْهُ النـصارى فـي نَبـيهِمُ ... واحكُمْ بما شئتَ مَدْحا فيه وَاحتَكِمِ
وانْسبْ إلى ذاتِه ما شئتَ مِن شَرَفٍ ... وانسبْ إلى قَدره ما شئتَ مِن عِظمِ
فـإنَّ فَـضلَ رَسـولِ الله لـيسَ لـهُ ... حَـد فيُعـرِبُ عـنهُ ناطـقٌ بفَـمِ

وقال في همزيته:

لا تَقِـسْ بالنبـيّ فـي الفَـضل خلْقـا ... فهُـو البَحـرُ والأنـامُ إضـاء
كُـل فـضلٍ فـي العالمـينَ فمِـن فـضـ ... لِ النبـي اسْـتعارَه الفُـضلَاء

وقال في بردته:

فمَـبلَغُ العِلـمِ فـيه أنـه بَـشرٌ ... وأنـهُ خيـرُ خَلـقِ اللهِ كلهِـمِ

وقال:

فـاقَ النبيـين فـي خلْـق وفـي خُلـقٍ ... ولـم يُدانـوه فـي عِلـمٍ ولا كَـرَم

وقال آخر:

محمـد بَـشرٌ لا كالبـشَر ... بـل هُـو كالـياقوتِ بـينَ الحَجـرِ

وقال بعضهم:

لـتَوراةِ موسـى فاسـألوا عَـن محمـدٍ ... تقـولُ لكـمْ مـا للحبـيبِ مَثـيلُ
لكـل رَسـول مَنـزل ومَكانـة ... ولكـنْ مـا مـثل الحَبـيبِ رسـولُ

وقال آخر:

لأحْمـدَ فـضلٌ لا يُعـد ولا يُحـصى ... ومَـن شـانَهُ بـين الـوَرى أبـدا يُقـضى

ولآخرَ وأجاد:

الـناس تَحـتَك أقـدامٌ وأنـتَ لهـمْ ... رأسٌ فكـيفَ يُـساوَى الـرأسُ والقَـدَم؟

هذا حاصل ما أردنا إيراده في هذا المطلب على جهة الاختصار والعلم عند الله سبحانه.

المطلب الثاني

في تكريم الله تعالى له بأن لم يجعل له في آبائه ﷺ، من لدن آدم إلى سيدنا عبد الله، سفاح، وأنهم كلهم عليهم السلام موصوفون بالخير والفلاح

وينحصر هذا المطلب في مهمين:

المهم الأول:

أما سلسلته المطهرة، فهو النبي الأبطحي، الهاشمي القرشي، صفوة الأنبياء، وخلاصة الأصفياء، خاتم النبيين، وإمام المرسلين، قطب الرحى، وشمس الضحى، ممد العالمين، ونخبة المتقين، سيدنا ومولانا ونبينا وحبيبنا محمد ﷺ. وسيأتي ما يتعلق بهذا الاسم الشريف في المطلب الرابع إن شاء الله تعالى.

ابن سيدنا عبد الله:

هو عَلَم منقول من مركب إضافي، ومعناه الخاضع لله، من قولهم: طريق معبَّد إذا وطأها الناس، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: «لم يُختَلَفْ في اسمه». وكنيته أبو محمد وأبو أحمد، قال في شرح المواهب عن وفاته: «والمصطفى حمل»، فلعله كنى بالإلهام، وإن قلنا بعد ولادته فظاهر، وإن كان ما يأتي لنا تحقيقه في مولده هو الأول.

ومن كناه أيضا ما ذكره ابن الأثير: أبو قثيم، وهو من أسمائه ﷺ، مأخوذ من القثم وهو الإعطاء، أو من الجمع، يقال للرجل المجموع للخير قثوم وقثم. ولقبه الذبيح، وسبب ذلك ذكره البيهقي ونقله المناوي على ألفية السير فانظره. وتزوج آمنة وعمره ثلاثون سنة، وقيل خمس وعشرون.

ابن سيدنا عبد المطلب:

مفتعل من الطلب، واختلف في اسمه:

- فقال محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي شيبة الحمد، وهذا هو الصحيح

كما قاله السهيلي ونسبه الحافظ للجمهور، وقال الشاعر:

على شيبة الحمد الذي كان وجهه يضيء ظلام الليل كالقمر البدر

قيل إنما سمي به لأنه ولد وفي رأسه شيبة.

• القول الثاني: ما قاله عبد الله بن مسلم بن قتيبة وتبعه المجد الشيرازي: إن اسمه عامر وكنيته أبو الحرث، وهو أكبر ولده، وقيل أبو البطحاء.

وسبب تسميته بعبد المطلب أن أباه تزوج امرأة من بني النجار، بشرط ألا تلد إلا في أهلها، فولدته فنشأ بالمدينة حتى ميز، فخرج أبوه إلى الشام فمات بغزة، فاحتمله المطلب من المدينة فدخل به مكة فأراه الناس وهو مردفه، فقالوا: عبد المطلب فغلب عليه، وقيل غير هذا.

قال السهيلي: وهو أول من خضب بالسواد من العرب، وكان مفزع قريش وشريفهم، وملجأهم في المهمات وموئلهم في النوائب، وفيه قيل:

وَشيبة ذي الحَمدِ الذي فَخرتْ به قُريش على أهل العُلا والمَناصبِ

وكان يعرف فيه نور النبوءة وهيبة الملك، وكان يرفع من مائدته للطير والوحش في رؤوس الجبال، ومن ثم كان يقال له الفياض ومطعم طير السماء. وجعل باب الكعبة من ماله ذهبا، وحرم الخمر على نفسه في الجاهلية، وكان يفوح منه رائحة المسك، وكان نور النبي ﷺ يضيء في غرته، وكان مجاب الدعوة استسقت به قريش فصعد على أبي قبيس يدعو فسقوا. وكان جسيما، أبيض، طويلا، أهدب مقرون الحاجبين، سهل الخدين، ما رآه أحد إلا أحبه، وحفر بئر زمزم، عاش مائة وأربعين سنة، وصدر مغلطاي بأنه عاش مائة وعشرين، وقيل خمس وتسعون.

ودفن بمكة بالحجون، وقيل بالمسواد، وقيل برمان بأرض العراق، وكان عمر النبي ﷺ إذاك ثمان سنين وشهرين، وقيل ثلاثا، وقيل غير ذلك.

ابن سيدنا هاشم:

قال مالك والشافعي: «اسمه عمرو، وإنما قيل له هاشم لأنه كان يهشم الثريد لقومه في الجدب»، قال الشاعر:

عَمْرُو العُلا هَشَمَ الثريدَ لقَومِه ورِجالُ مَكةَ مُسْتَنون عِجافُ

قال الباجي في المنتقى: «كان هاشم أفخر قومه، وأعلاهم، وكانت مائدته منصوبة لا ترفع لا في السراء ولا في الضراء، وكان يحمل السبيل، ويؤدي الحقائق، وكان نور النبي ﷺ في وجهه يتوقد شعاعه، ويتلألأ ضياؤه، ولا يراه حبر إلا قبّل يده، ولا يمر بشيء إلا سجد إليه، تغدو إليه قبائل العرب ووفود الأحبار، يحملون بناتهم إليه ويعرضونهن عليه، حتى بعث هرقل ملك الروم إليه وقال له: إن لي بنتا لم تلد النساء أجمل منها ولا أبهى وجها، فأقدِمْ عليَّ حتى أزوجكما، فقد بلغني كرمك وجودك، وإنما أراد بذلك نور المصطفى ﷺ الموصوف عندهم في الإنجيل، فأبى هاشم». قال ابن إسحاق: «هو أول من مات من بني عبد مناف»، وقد اختلف في السنة، فقيل عشرون سنة، وقيل خمس وعشرون.

ابن سيدنا عبد مناف:

مفعل من أناف ينيف إنافة إذا ارتفع، والإنافة الإشراف والزيادة والعلو، وبه سمي لطوله، من قولهم: مائة ونيف، زائد على المائة. قال الشافعي: «واسمه المغيرة منقول من الوصف، والهاء فيه للمبالغة، أي إنه يغير على الأعداء، أو من أغار الحبل إذا أحكمه ودخلته الهاء للمبالغة كما في علامة ونسابة». وجوَّز السهيلي أن تكون للتأنيث، ويكون منقولا من وصف المؤنث. وقد ساد في حياة أبيه، وكان مطاعا في قريش ويدعى بالقمر لجماله فكان يقال له: قمر البطحاء، قال الواقدي: «وكان فيه نور النبي ﷺ، وفي يده لواء نزار وقوس إسماعيل»، وذكر الزبيدي عن موسى بن عقبة أنه وجد كتابة في حجر: «أنا المغيرة بن قصي، آمر بتقوى الله وصلة الرحم»، وإياه عَنى القائل:

كانَـــت قـــريشٌ بَيـــضَةً فـــتفَلقتْ فـــالمحُّ خالـــصُه لِعـــبد مَـــنافِ

ومات بغزة كما قال ابن هشام.

ابن سيدنا قصي:

بضم القاف والصاد المهملة بصيغة التصغير، لقب به لأنه بعد عن قومه في قضاعة حين احتملته أمه فاطمة، واسمه مُجمِّع بضم الميم الأولى وتشديد الثانية وكسرها، قال الشاعر:

أبـوكُمْ قُـصيٌّ كـان يُدعـى مُجمِّعـا بـه جَمَـعَ الله القـبائلَ مِـن فِهْـرِ

وجزم العراقي وغيره، وعليه اقتصر في "الفتح" بأن اسمه زيد، وقال الإمام الشافعي كما حكاه عنه الإمام أحمد: يزيد.

وكنيته أبو المغيرة، وكان جميلا، أصاب مُلْكا طاعَ له به قومه، فكان أول بني كعب أصاب مُلْكا، وذلك أن خزاعة تولت أمر البيت ثلاثمائة سنة إلى أن كان آخرَهم رجل يدعى أبا غُبشان وهو عمر بن يحيى، وهو خال قصي أخو أمه، وكان في عقله شيء فخدعه قصي فاشترى منه أمر البيت بزق خمر فضربت العرب به المثل فقالت: «أخسر صفقة من أبي غُبشان»، فغلب قصي على أمر البيت وجمع بطون بني فهر وحارب خزاعة حتى أخرجهم من مكة واستولى عليها.

وكان عالم قريش، وأمره فيهم كالدين المتبع في حياته وبعد مماته، وبنى دار الندوة وجعل بابها في المسجد فلا ينعقد نكاح إلا بها، ولا أمر مهم إلا فيها برأيه، وهو أول من سقى اللبن بمكة، وأول من احتفر سقاية ليشرب منها الحجاج، وأمر قومه بأن يجعلوا خراجا لأيام الحج، قال: لأن الحجاج أضياف الله، وأضيافه أحق الأضياف بالكرامة.

ومن كلامه: «من عظم لئيما فقد شاركه في لؤمه، ومن استحسن مستقبحا أشرك فيه، ومن لم تصلحه الكرامة أصلحه الهوان، ومن طلب فوق قدره استحق الحرمان». ولم يزل ذا سيادة في قومه حتى توفي ودفن بالحجون.

ابن سيدنا كِلاب:

بكسر الكاف، قال السهيلي: مصدر بمعنى المكالبة، تقول كالبت فلانا مكالبة وكلابا وهو بلفظ جمع كلب، لقب به لمحبته الصيد، وكان يجمعها لذلك فإذا مر في قومه بكلابه قالوا هذا كلاب، فبقي عليه هذا اللقب. واسمه حكيم كما صححه المحب بن الشهاب، وقيل عروة، وقيل حكيمة، وذكر ابن سعد أن اسمه المهذب وقيل غير ذلك. وكنيته أبو زهرة وهو الذي قصد الشاعر فقال:

حكـيم بـن مـرة سـاد الـورى بـبذل الـنَّوال وكـف الأذى

وهو أول من جعل في الكعبة السيوف المحلاة بالذهب والفضة، ومنه بطن

واحد سوى عمود النسب، وهم بنو زهرة، وفيه يقول القائل:

وحل كلاب من ذرى المجد معقلا تقاصر عنها كل دار وعازب

ابن سيدنا مُرة:

بضم الميم وتشديد الراء، منقول من وصف الحنظلة أو العلقمة، وكثيرا ما يسمى بها، وجوز السهيلي كون الهاء للمبالغة فيكون من الوصف بالمرارة. وقيل مأخوذ من القوة والشدة، قال تعالى في وصف جبريل: ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ ﴾ [النجم: 6] أي ذو قوة. ويقال أمر الشيء إذا أحكم صنعته. وكنيته أبو لَقِيظَة بفتح القاف والظاء المعجمة. ومن نسل مرة، هذا الصديق وطلحة.

ابن سيدنا كعب:

من الكعب الذي هو قطعة من السمن، وهي الكتلة الجامدة في الوعاء، سمي به للينه لقومه وستره عليهم، ومنه قول عائشة: كان يهدي لنا كعب إهالة فنفرح به؛ أي قطعة سمن، أو دهن. أو من كعب القفا كما قاله ابن دريد، وكعب القدم كما قال السهيلي أشبه لقولهم: أثبت ثبوت الكعب. ولهذا اقتصر عليه جمع فقالوا: من كعب الإنسان، وهو ما ارتفع وأشرف من فوق رسغه، سمي به لارتفاعه على قومه وشرفه عليهم. وكنيته أبو هُصيص بمهملتين مصغرا، والهص شدة الوطء، وفيه قيل:

وكعب علا عن طالب المجد كعبه فنال بأعلى السعي أعلى المراتب

ومنه بطنان غير عمود النسب وهما بنو عدي، ومنهم عمر وسعيد بن زيد، ومنهم بنو حجم وبنو سهم.

وكان عظيم القدر عند العرب، ولذا أرخوا بموته إلى عام الفيل، ثم أرخوا بالفيل، وكان بينه وبين موته مائة وعشرون سنة، وهو أول من جمع الناس يوم العروبة، وأول من سماها بالجمعة، وكانت تجتمع إليه قريش فيخطبهم في هذا اليوم ويذكرهم بمبعثه ﷺ، ويعلمهم بأنه من ولده، ويأمرهم باتباعه والإيمان به، وينشد في ذلك أبياتا منها قوله:

يا لَيتَني شاهدٌ فَحْواءَ دَعوتِه إذا قُريشٌ تبغي الحَق خِذلانا

ومراده أنه يتمنى إدراك زمن النبي ﷺ، وقريش يعارضونه ويطلبون خذلان دينه، وطلب ذلك لينصره ويظهر دينه. وقيل بين موته ومبعث النبي ﷺ خمسمائة وستون سنة.

ابن سيدنا لؤي:

بضم اللام وبالهمز وتركه، والهمز أكثر كما قاله المناوي. وقال الجياني: تصغير لأى أي كوزن عصى كما قال أعيلش في القول المنجي. قال السهيلي: عندي أنه تصغير لأى بوزن عبد وهو البطء نقيض العجلة، كأنهم يريدون معنى الإناءة وعدم العجلة. قال ابن حجر: ويؤيده قول الشاعر:

فـــدونكُمُ بَنـــي لُـــؤْيٍ أخـــاكُم وَدونَـــكِ مالِكـــاً يـــا أمَّ عَمْـــرِو

وهذا قد ذكره ابن الأنباري أيضا، وقال ابن دحية كالأصمعي، هو تصغير لواء الجيش زيدت فيه همزة.

وأمه عاتكة بنت يخلد بن النضر بن كنانة إحدى العواتك اللائي ولدن المصطفى ﷺ. وكنيته أبو كعب، وكان له سبعة ذكور منهم كعب وعامر وأسامة بن غالب من الغَلَب بفتحتين أو الغلبة، يقال غلبت غالبا فأنا غالب. وكنيته أبو تميم، وله من الأولاد لؤي وتميم، ويقال له الأدرم لكون أحد لحييه أنقص كان من الآخر.

ابن فِهر:

بكسر الهاء من قولهم ماهر الرجل المرأة أي جامعها فإذا قارب الإنزال تحول إلى غيرها فأنزل فيها. وقال ابن دريد: الفهر الحجر الأملس يملأ الكف وهو مؤنث. وقال الأصمعي: أخطأ من أنثه، وقال السهيلي: الفهر من الحجارة الطويل، قال ابن حجر في "فتح الباري ": اسمه قريش. ونقل عن الزهري أن أمه سمته به، وأباه سماه فهرا، وقيل فهر لقبه، وقيل بالعكس، وإليه تنسب قريش كما قال به جماعة، ونسب للأكثر. قال الزهري: وهو الذي أدركت عليه من أدركت من نساب العرب، فما فوقه لا يقال له قرشي بل كناني على ما صححه الدمياطي والعراقي وغيرهما واستدلوا بها في صحيح مسلم والترمذي مرفوعا: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة» انظر شرح المواهب. قال ابن دحية: «وفي التسمية

بقريش من أول من تسمى به عشرون قولا»، وكان فهر رئيس الناس بمكة وإليه المرجع في الحل والعقد، وفيه قيل:

وكانت لفهر في قريش خطابة يعود بها عند استجار المخاطب

ابن سيدنا مالك:

قال في الخميس: وسمي مالكا لأنه كان ملك العرب، فهو اسم فاعلِ ملك يملك فهو مالك، وجمعه ملاك وملك. وكنيته أبو الحرث وأبو خزاعة، ورجعت قريش إلى مالك فهو أبوها كلها ولا فخذ للنضر إلا مالك لا غير لأنه لم يلد غيره، وأمه عاتكة بنت غزوان، وهو الحرث بن عمرو بن قيس عيلان، وفيه قيل:

وما زال فينا مالكٌ خيرَ مالكٍ وأكرمَ مَصحوبٍ وأمجدَ صاحبِ

ومن حِكَمه: «رُبَّ صورةٍ تخالف الخبر قد عزت لجمالها، وأخبث بقبيح فعلها فاحذر الصورة واطلب الخبر».

ابن النضر:

واسمه قيس، وإنما لقب بالنضر لنضارة وجهه وإشراقه، وكنيته أبو مخلد، ولا عقب له إلا من مالك فقط، وفيه يقول الشاعر:

وللنَّضرِ ضَوءٌ يَقْصُر الطرفُ دونَهُ بحيثُ التَقى ضوءَ النجومِ الثواقِبِ

وأم النضر برة بنت مُر بن لابخة بن إلياس بن مضر أخت تميم، خلَّف عليها كنانة بعد أبيه خزيمة، فولدت له النضر، وكان ذلك مباحا في الجاهلية، إذا مات الرجل خلفه ولده الكبير في زوجته فنهى الله عن ذلك في شريعتنا، قال بعض: وفائدة الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: 22] دفع ألا يعاب في نفسه ﷺ بدليل أنه لم يقل مثل ذلك في الزنا ولا غيره إلا في هذه، وفي الجمع بين الأختين في قضية يعقوب، حيث جمع بين راحيل وأختها، قال الحلبي: «وقد تفكرت في ذلك ووقوعه في نسب المصطفى: ما ولدني من سفاح أهل الجاهلية شيء، ما ولدني إلا نكاح كنكاح الإسلام، والجواب عن ذلك أنهما اتفقا في الاسم فقط، وقد غلط في هذا كثيرون، والتحرير كما في "المزهر " أنهما اتفقا في الاسم،

فلا إشكال».

ابن سيدنا كنانة:

وسمي بذلك تفاؤلا بأنه يصير كالكنانة الساترة للسهام، فكان سترا على قومه، وقيل سمي به لأنه لم يزل في كَنٍّ مِن قومه، ونقل عن أبي عامر العدواني أنه قال: «رأيت كنانة بن خزيمة شيخا مسنا عظيم القدر يحج إليه العرب لعلمه وفضله بينهم، وكان يقول: قد آن خروج نبي بمكة يدعى أحمد، يدعو إلى الله، وإلى البر والإحسان ومكارم الأخلاق، فاتبعوه تزدادوا شرفا إلى شرفكم، وعزا إلى عزكم». وكان كريما جوادا، وفيه قيل:

لَعَمْـــري لقـــد أبْـــدى كِـــنانَةُ قَلـــبُهُ مَحاســـنَ تأبـــى أن تَطـــوعَ لغالِـــبِ

وتفرعت عنه قبائل خمس غير عمود النسب، قال في "الفتح": وإليه تنتهي أنساب الحجاز، كما أنه تنتهي أنساب قريش إلى النضر.

ابن سيدنا خزيمة:

في "الخميس": إنما سمي خزيمة - تصغير خزمة - لأنه اجتمع فيه نور آبائه، وفيه نور رسول الله ﷺ. قال ابن عباس: مات خزيمة على ملة إبراهيم، وكنيته أبو أسد.

ابن سيدنا مُدرِكة:

لُقب به لإدراكه كل عز وفخر كان في آبائه، وكان فيه نور المصطفى ﷺ ظاهرا بينا، واسمه عمرو على ما للجمهور وهو الصحيح، وضعَّف قول ابن إسحاق عامر. ويكنى أبا الهذيل وأبا خزيمة، وأمه خندف وهي ليلى بنت حلوان. سمي مدركة لأن أباه إلياس خرج في تحفة فنفرت إبله من أرنب وخرج إليها عمرو فأدركها فسمي مدركة، وفيه قيل:

ومُدركَـــة لـــم يُـــدرِكِ الـــناسُ مِـــثلَهُ أعَـــفَّ وأعْلـــى عَـــن دَنِـــيِّ المَكاسِـــبِ

ابن سيدنا إلياس:

بكسر الهمزة، وتفتح، ولامه للتعريف، وهمزته للوصل عند الجمهور، وهو ضد

الرجا. وقال ابن الأنباري: إفعال من قولهم رجل أليس للشجاع الذي لا يفر، وإلياس هذا هو المعروف في اسمه، وفي وسيرة مغلطاي أن اسمه حبيب، وفي "الخميس ": إنما سمي بإلياس لأن أباه كبر ولم يولد له، فولد على الكبر واليأس فسمي إلياس. وكنيته أبو عمرو.

وهو أول من أهدى البُدن إلى البيت الحرام، وفي" حياة الحيوان " أنه أول من وضع مقام إبراهيم للناس بعد غرق البيت وانهدامه زمن نوح، فكان إلياس أول من ظفر به فوضعه في زاوية البيت. والذي في "الاكتفا " أنه أول من وضع الركن للناس بعد هلاكه، وهو أول من مات بالسيل، وإنما سمي ذا إياس لكونه مات به، ولما مات أسفت عليه امرأته خندف أسفا شديدا، وحلفت لا تقيم ببلد مات فيه، ولا يظلها سقف، وحرمت الرجال والطيب، وخرجت سائحة في الأرض حتى هلكت. ومات يوم الخميس فنذرت أن تبكيه كلما طلعت شمس يوم الخميس حتى تغيب، ففعلت حتى هلكت، وفيه يقول الشاعر:

إلـــياسُ كـــانَ الـــيَأسُ مِـــنه مُقارِنـــا لأعْدائِـــهِ قَـــبلَ اعْـــتِدادِ الكَـــتائِبِ

وذكر في "الروض" أنه كان يسمع في صلبه تلبية النبي ﷺ بالحج، ولم تزل العرب تعظمه تعظيم أهل الحكمة كلقمان وأشباهه. وكان يدعى كبير قومه وسيد عشيرته، ولا يُقطع أمر ولا يُقضى بينهم دونه. قال الزبير بن بكار: «لما أدرك إلياس أنكر على بني إسماعيل ما غيروا من سنن آبائهم، وبان فضله عليهم ولان جانبه لهم حتى جمعهم رأيه ورضوا به فردهم إلى سنن آبائهم». وكان ذا جمال بارع، قال السهيلي: ويذكر عن النبي ﷺ: «لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمنا»، قال في البرهان: «ولا أدري أنا هذا الحديث».

ابن سيدنا مضر:

قال الحافظ: «قيل سمي به لأنه كان يحب اللبن الماضر وهو الحامض». إن قلتَ: «كونه لأجل هذه العلة يستدعي أن يكون له اسم قبل اتصافه بهذه الصفة»، الجواب: «أنه يمكن أن يكون هذا اشتقاقه ولا يلزم أن يكون متصفا في حال التسمية». وقيل له مضر الحمراء لأن أباه أوصى له بقبة حمراء، وسبب ذلك ذكره

الماوردي في أعلام النبوءة. وقيل سمي به لبياضه، وقيل لأنه كان يمضر القلوب بحسنه وجماله، وكان لا يراه أحد إلا أحبه، وقيل اسمه عمرو وكنيته أبو إلياس.

ومن حكمه: «من يزرع شرا يحصد ندامة، وخير الخير أعجله فاحملوا أنفسكم على مكروهها، واصرفوها عن هواها فيما أفسدها، فليس بين الصلاح والفساد إلا صبر فواق، أي قدر ما بين حلبتين».

وهو أول من سن حداء الإبل فإنه سقط عن بعيره فانكسرت يداه فجعل يقول: «يا يداه يا يداه»، فأتته الإبل من المرعى، فلما عوفي ركب واحدا. وكان أحسن الناس صوتا، وفيه قال الشاعر:

وفي مُضَرٍ يَسْتَجمعُ الفَخرُ كُلُّه إذا اعْتَزلَت يَوما زحوفُ المَناقِبِ

وأخرج ابن سعد في الطبقات من مرسل عبد الله بن خالد: «قال رسول الله ﷺ: لا تسبوا مضرا فإنه كان قد أسلم». وروى عبد الملك بن حبيب عن ابن المسيب مرسلا: «لا تسبوا مضرا فإنه كان مسلما على ملة إبراهيم».

ابن سيدنا نِزار:

بكسر النون والتخفيف، قيل إنه لما ولد نظره أبوه فوجد نور النبي ﷺ بين عينيه ففرح بذلك فرحا شديدا وأطعم وقال: «إن هذا كله نزر، أي قليل بحق هذا المولود»، فسمي نزار بذلك، وبهذا جزم السهيلي وغيره. قال في "الخميس " بعد جزمه به: خرج أجمل أهل زمانه وأكبرهم عقلا. واقتصر الحافظ في "الفتح" على أنه إنما سمي بذلك لكونه كان فريد عصره. قال الماوردي: كان اسمه خلدان، وكان مقدما، وانبسطت إليه اليد عند الملوك، وكان مهزول البدن، فقال له ملك الفرس: «ما لك يا نزار؟»، وهو بلغة الفرس مهزول، فغلب عليه. وفيه قيل:

وحَل نِزارٌ مِن رِياسةِ أهلِه مَحَلا تَسامى عَن عُيونِ الرَّواقِبِ

وكنيته: أبو إياد، وقيل أبو ربيعة، قيل: إن قبره بذات الجيش قرب المدينة.

ابن سيدنا مَعَدّ:

بفتح الميم والمهملة، وشدة الدال كما في "الفتح"، قال ابن الأنباري: «مفعل من العدِّ أو من مَعَد في الأرض إذا أفسد». قال في "الخميس " لأنه كان صاحب

حروب. واسمه عمرو، وقد وقعت له غارات على بني إسرائيل، ولم يحارب أحدا إلا رجع بالنصر والظفر. وكنيته أبو قضاعة وقيل أبو نزار.

ابن سيدنا عدنان:

بوزن فَعْلان مِن عدنَ إذا أقام، ومنه المعدِن بكسر الدال لأنه يقام فيه طلبا لجواهره، قيل سمي به لأن أعين الجن والإنس كانت إليه، وأرادوا قتله وقالوا لئن تركنا هذا الغلام حتى يدرك مدرك الرجال لَيَخرُجَنَّ من ظهره من يسود الناس، فوكَّل الله به من يحفظه. وحكى الزبير أن عدنانَ أول من وَضَع أنصاب الحَرَم، وأول من كسا الكعبة أو كسيت في زمانه، وفيه يقول القائل:

وما زالَ عَدنانٌ إذا عُد فضلُه تَوحدَ فيه عن قَريبٍ وَصاحِب

وما ألطف قولَ بعضهم وقد رمز بالحرف الأول من كل كلمتين من هذين البيتين إلى واحد من آبائه ﷺ على ترتيبهم إلى عدنان:

علقْتُ شفيعا هالَ عَقلي قرانُه كتابٌ مُبين كسب لُبي غَرائبُهْ
فِدا مَعشرٍ نَفسي، كِرامٍ خُلاصةٍ على إلْفِهِمْ مُذْ نيلَ مَجدٌ عَواقبُه

وقد نسبهما في "جذوة الاقتباس " لأبي القاسم الفجيجي قال: «وقيل للونشريسي أو الزقاق»، ولم ينسبهما ابن مرزوق خلافا لبعضهم، وقد توسل بهم شيخنا المحقق سيدي الحاج مَحمد (فتحا) جنُّون في قصيدة له، ونص الشاهد منها:

يا رَب بالهادي النبيّ محمَّدِ وأبيهِ عبدِ الله أكرمِ والِدِ
وبِشيبةِ الحَمدِ الرضى وبِهاشمٍ وكَذا بعبدِ مَنافِهِمْ كُنْ مُنجِدي
وكَذا قُصَيْ معْ كِلابٍ مُرَّة وبكَعبِهِمْ أرْجو بلوغَ المَقصدِ
وَكذا لُؤيْ معْ غالِبٍ وبِفِهرِهِمْ وبِمالِكٍ والنضْرِ عالي المَقعَدِ
وكِنانَةٍ وخُزيمَةٍ وبمُدْرِكٍ إلياسَ معْ مُضَرٍ يَدومُ تَصعّد
وكَذا نِزارٍ مَعْ مَعَدٍّ أصلُه وكَذاكَ عَدنانٍ خِتامِ القُعدد

فائدة:

قال في "المواهب": «قال ابن دحية: أجمع العلماء، والإجماع حجة، على أن

رسول الله ﷺ إنما انتسب إلى عدنان ولم يتجاوزه». وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ كان إذا انتسب لم يجاوز معد ابن عدنان، ثم يمسك ويقول: كذب النسابون، مرتين أو ثلاثا، رواه في مسند الفردوس، لكن قال السهيلي: «الأصح في هذا الحديث أنه من قول ابن مسعود».

وعن سيدنا عمر ﷺ أنه قال: إنما ينسب إلى عدنان، فما فوق ذلك لا يدرى ما هو. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون أيا بأسمائهم، وإلا فيشكل مع قوله: ثلاثون. وقيل بينهما أربعة، وقيل ثمانية، وقيل تسعة، وقيل عشرة، وقيل خمسة عشر، وقيل عشرون، وقيل ثمانية وعشرون، وقيل ثمانية وثلاثون، وقيل تسعة وثلاثون، وقيل واحد وأربعون، وقيل غير ذلك، حكى الجميعَ شارحُ المواهب. قال عروة بن الزبير أحد الفقهاء السبعة المجموعين في قول بعضهم:

ألا كُـــل مَـــن لا يَقـــتَدي بأئمـــةٍ فقِـسمَتُه ضِـيزى عَـن الحَـق خارِجَـهْ
فخُـــذْهُمْ عبـــيدُ الله عُـــروةُ قاسِـــمٌ سَـعيدٌ أبـو بَكـرٍ سُـليمانُ خارِجَـهْ

ما وجدنا أحدا يعرف بعد معد بن عدنان:

وقد سئل عالم دار الهجرة مالك بن أنس ﷺ عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم فكره ذلك، قيل له: فإلى إسماعيل؟ فكره ذلك وقال على سبيل الإنكار: من أخبره بذلك؟ ورُوي عنه أيضا أنه كره ذلك في رفع نسب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وتبعه على الكراهة جماعة، والجمهور على الجواز لما يترتب عليه من الفوائد الكثيرة.

روى أحمد والترمذي وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلوا به أرحامكم». وهذا لا تعارض بينه وبين ما رواه أبو نعيم وغيره عن أبي هريرة مرفوعا: «علم النسب علم لا ينفع، وجهالة لا تضر، لأن محل النهي إنما هو التوغل والاسترسال فيه بحيث يشتغل به عما أهم منه»، ولهذا قال ابن حازم: «علم النسب منه ما هو فرض عين، وفرض كفاية، ومنه ما هو مستحب».

هذا ما يتعلق بسلسلته الطاهرة:

أولـــئك آبائـــي فجئنـــي بمـــثلهم إذا جمعتـــنا يـــا جَريـــر المجامِـــع

وقال البوصيري في همزيته:

لـم تـزل فـي ضـمائر الغـيب تختـا ر لَـــك الأمَّهـــات والآبـــاءُ

ثم قال:

وبَـــدا للوُجـــود مـــنْك كَـــريمٌ مِـــن كَـــريم آبـــاؤه كُـــرَماءُ
نـــسَب تَحـــسِب العُـــلا بحُـــلاه قلَّـــدتْها نُجـــومَها الجَـــوزاءُ
حـــبَّذا عقْـــدُ سُـــؤددٍ وفَخـــارٍ أنـــتَ فـــيه اليَتـــيمَةُ العَـــصماءُ

المهم الثاني:

قال في المواهب: قال ابن عباس فيما رواه البيهقي في سننه قال رسول الله ﷺ: «ما ولدني، أي مسني، من سفاح الجاهلية شيء، ما ولدني إلا نكاح الإسلام». والسفاح بكسر السين المهملة الزنا، والمراد به هنا أن المرأة تسافح رجلا مدة، ثم يتزوجها بعد ذلك. وروى ابن سعيد وابن عساكر عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه محمد قال: «كتبت للنبي ﷺ خمسمائة أمًّا فما وجدت فيهن سفاحا ولا شيئا مما كان في أمر الجاهلية». وعن سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ أن النبي ﷺ قال: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، لم يصبني من نكاح أهل الجاهلية شيء»، رواه الدارقطني في الأوسط وابن عساكر وابن عدي.

وروى أبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا: «لم يلتق أبواي قط على سفاح، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما». وروى ابن عباس أيضا في قوله تعالى: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [الشعراء: 219] من نبي إلى نبي حتى أخرجتك نبيا، رواه البزار.

وعن ابن عباس أيضا في تفسيرها: «ما زال النبي ﷺ يتقلب في أصلاب الأنبياء حتى ولدته أمه»، رواه أبو نعيم. وعن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة: 128]، قال لم يصبه شيء من ولادة

الجاهلية، قاله محمد وقال النبي ﷺ: «خرجت من نكاح غير سفاح».

وروى ابن مردويه الأصبهاني قال: «قرأ النبي ﷺ: «لقد جاءكم رسول من أنفَسكم» بفتح الفاء، وقال: أنا أنفَسُكم نسبا وصهرا وحسبا، ليس في آبائي من لدن آدم سفاح، كلنا نكاح».

وروى أبو نعيم في الدلائل عن عائشة رضي الله عنها عنه ﷺ عن جبريل قال: «قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر رجلا أفضل من محمد عليه الصلاة والسلام، ولا بني أب أفضل من بني هاشم»، وكذا أخرجه الطبراني في الأوسط. قال الحافظ: «لوائح الصحة لائحة على صفحات هذا المتن».

وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «بُعثتُ مِن خير قَرن بني آدم قرنا فقرنا، حتى كنت من القرن الذي كنت منه»، وفي مسلم عن واثلة بن الأسقع: «قال ﷺ: إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم». وقال بعض الأدباء في ذلك:

قُـــريْشٌ خِـــيار بنـــي آدَمٍ وَخيـــرُ قُـــريشٍ بَـــنو هاشِـــمِ
وَخَيـــرُ بَنـــي هاشِـــمٍ أحْمَـــدٌ رَســـولُ الإلـــهِ إلـــى العـــالَمِ

وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال رسول الله ﷺ: إن الله خلق الخلق فجعلني في خير فرقهم، وخير الفريقين، ثم تخير القبائل فجعلني في خير قبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني في خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا»، أي أصلا.

وروى الطبراني في الأوسط عن ابن عمر رضي الله عنهما قال «: إن الله اختار خلقه فاختار منهم بني آدم، ثم اختار من بني آدم العرب، ثم اختارني من العرب، فلم أزل خيارا من خيار، ألا إن من أحب العرب فبحُبي أحبَّهم، ومن أبغض العرب فببُغضي أبغَضَهم». وروى الطبراني عن علي رفعه: «لا يبغض العرب إلا منافق».

والحاصل: إن آباءه عليه الصلاة والسلام لم يكن فيهم سفاح، بل كانوا من نكاح، ولم يكن فيهم أحد مشرك، قال فخر الدين الرازي: «آباء النبي ﷺ كلهم إلى آدم على التوحيد، لم يكن فيهم شرك، يدل على ذلك قول النبي ﷺ: لم أزل أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ

نَجَسٌ﴾ [التوبة: 28]، فوجب ألا يكون أحد من أجداده مشركا».

قلت: وهذا الذي قاله الإمام الرازي هو الذي ارتضاه المحقق السنوسي والتلمساني وجلال الدين السيوطي، قال، أي الجلال، وقد وجدت لكلام الرازي أدلة قوية ما بين عامّ وخاصّ، ثم ساق أدلة على ذلك ثم قال: فتلخص من مجموع ما سقناه أن أجداده ﷺ من آدم إلى كعبٍ ووالدِه مُرَّة مُصرَّحٌ بإيمانهم، وبقي بين مُرة وعبدِ المطلب لم يظفر فيهم بنقل، وعبد المطلب ورد فيه أدلة تشهد بأنه كان على التوحيد، وإلى هذا أشار الحافظ ابن ناصر الدمشقي بقوله:

تَـــنَقَّلَ أحمَـــدٌ نـــورا عَظـــيما تَـــلألأَ فـــي جِـــباهِ الـــساجِدين
تَـــنقل مِـــنهُمُ قَـــرنا فقَـــرْنا إلـــى أنْ جـــاءَ خَيـــرُ المُرْســـلين

فإن قلت: يرد على هذا قول الله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام: 74]، ولا شك أن إبراهيم من أجداده ﷺ، فالجواب ما قاله ابن حجر الهيتمي: «أجمع أهل الكتابين على أن آزر لم يكن والد إبراهيم بل كان عمه، والعرب تسمي العم أبا، بل في القرآن ذلك، قال تعالى: ﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾، الآية، مع أنه عم يعقوب، بل لو لم يجمعوا على ذلك وجب تأويله جمعا بين الأحاديث. وأما من أخذ بظاهره كالبيضاوي فقد تساهل»، انتهى كلام ابن حجر.

قلت: وما قاله ابن حجر قال السيوطي إنه الراجح كما ثبت عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج. والذي قال. وقد وقفت على أثر في تاريخ ابن المنذر صرح فيه بأنه عمه. وما قاله السيوطي قال به الرازي، قلت: وقد كان ظهر لي إشكال ومحصله أن من المقرر أن آباء النبي ﷺ كلهم على الإيمان. وأجبنا عن آزر بأنه عم إبراهيم وليس بأبيه.

قد يقال على تسليم ذلك الكفار الذين كانوا في زمن سيدنا إبراهيم ﷺ، ومن جملتهم: آزر لما سألهم إبراهيم عن سبب عبادتهم الأصنام، أجابوا بأن قالوا: ﴿ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: 53] وآزر من جملة القائلين أن أباه كان كذلك. وأبو آزر كان جدا لإبراهيم، فمع هذا فإن المعتقد خلافه أن آباء النبي ﷺ كلهم على التوحيد، فهل الكلام من باب الكل المجموع؟ بمعنى أن آزر لم يكن من

القائلين؟ لا إشكال، أو كان منهم فيثبت الإشكال.

وأجاب عنه بعض شيوخنا بعد أن سألته عنه بتعيين أن الكلام من باب الكل المجموع، قال: ويدل لذلك أنه لو كان من القائلين لكان أقطع حجة أن يقولوا له: وجدنا آباءك لها عابدين، فلما لم يجدوا لذلك سبيلا قالوا: وجدنا آباءنا فلا إشكال، والله أعلم!

فائدة:

قد ورد أن الله أحيا أبا النبي ﷺ وأمه حتى آمنا به كرامة له، لكن صرح غيرُ واحد بضعفه، بل بعضهم حكى الاتفاق على ضعفه، كالخطيب، وابن عساكر، وابن شاهين، والطبري، والسهيلي، وابن المنير، وابن سيد الناس، وابن حجر، والسيوطي، وابن ناصر حافظ الشام الدمشقي، ولهذا قال في أبياته:

حَبـــى اللهُ النبـــيَّ جَـــزيلَ فَـــضْلٍ ... عَلـــى فَـــضْلٍ وكـــانَ بـــه رَؤوفَـــا

فأحْـــيا أمَّـــهُ وكَـــذا أبـــاهُ ... لإيمـــانٍ بـــهِ فَـــضْلاً مُنـــيفا

فَـــصدِّقْ فالإلـــهُ بِـــذا قَديـــرٌ ... وإنْ كـــانَ الحَـــديثُ بـــهِ ضَـــعيفَا

وقول ابن حجر العسقلاني في كتابه " الميزان ": إن حديث إحياء آمنة في حجة الوداع كذب سنده ومتنه. قال عليه سيدي المهدي الفاسي في "شرح الدليل ": الصواب ضعفه لا وضعه. واتفق المحدثون على عدم ارتفاعه عن درجة الضعف. إذا علمت هذا، فقول ابن حجر الهيثمي إنه حديث صححه غير واحد من الحفاظ ولم يلتفتوا لمن طعن فيه، يعني كالسهيلي، وابن حجر العسقلاني الذي ادعى وضعه، وقول بعضهم:

أيقـــنْتُ أنَّ أبـــا النَّبـــيّ وأمَّـــهُ ... أحْـــياهُما الـــرَّبُّ الكَـــريمُ الـــباري

حَتـــى لَـــهُ عَهْـــداً بـــصِدْقِ رِســـالةٍ ... صِـــدْق فـــتلْكَ كَـــرامَةُ المُخْـــتار

هَـــذا الحَـــديثُ ومَـــنْ يَقـــولُ بـــضَعفِه ... فهُـــو الـــضَّعيفُ عَـــنِ الحَقـــيقةِ عـــارِ

ليس عليه تعويل من جهة الصناعة، نعم، هو الذي يثلج له الصدور، وعلى كل حال، فنجاتهما قطعية لا ريب فيها ولا مرية. ويعجبني قول الشهاب الخفاجي:

لِـــوَالِدَيْ طَـــه مَقـــامٌ عَـــلاَ فـــي جَـــنَّةِ الخُلْـــدِ ودارِ الـــثَّوَابْ
وقَطْـــرةٌ مِـــن فَـــضَلاتٍ لَـــه فـي الجَـوْفِ تُنْجِـي مِـن أَلِـيمِ العِقـابْ
فكَـــيفَ أَرْحـــامٌ لـــهُ قَـــد غَـــدَتْ حامِلـــةً تَـــصْلَى بـــنارِ العَـــذابْ؟

نقل عن القاضي أبي بكر بن العربي عن رجل قال: «إن أبوي النبي ﷺ في النار، فأجاب بأنه ملعون، قال: لأن الله تعالى قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأحزاب: 57]، ولا أذى أعظم من أن يقال في النار»، نعوذ بالله من ذلك، فإن المعتقد ولله الحمد أن الله أحياهما له ﷺ كرامة له، والله تعالى أعلم. هذا ما تيسر جمعه في هذا المطلب، والله المستعان.

المطلب الثالث

في مولده ﷺ

اعلم أن الله تبارك وتعالى جعل نور سيدنا محمد ﷺ أصل الموجودات، وممد جميع المخلوقات، فقد روى عبد الرزاق في مصنفه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «قلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء؟ فقال: يا جابر، إن الله ﷻ خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، أي من نور خلقه، وأضافه إلى نفسه تشريفا له فجعل ذلك النور يدور، أي يتردد، وينتقل في عالم الملكوت بالقدرة حيث شاء الله، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سما ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جني ولا إنسي، ولكنه ماء نوري كالقرآن، ومتضمن للماء العنصري وغيره من الكائنات التي ستفصل عنه بتقدير العزيز العليم».

ووجه المناسبة أن النور، لكونه يهتدى به، سبب الحياة الجسمية، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: 52]. والماء سبب الحياة الجسمية، قال تعالى: ﴿ نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا ﴾ [العنكبوت: 63] وفي معناها آيات كثيرة. وأيضا فإن الله قد سماه ﷺ رحمة في قوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: 107]، وسميت الغيث رحمة في قوله تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ [الروم: 50]، فظهر وجه تسمية النور ماء ورحمة. ثم إن قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: 156]، وقوله عن الملائكة: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر: 7]، يدل على أن هذه الرحمة هو الوجود الممكن العام المفاض على كافة القوابل المعينة لقبوله، فإنها بهذا المعنى هي التي وسعت كل شيء، كل علم كما لا يخفى. والقوابل المتعينة لقبولها هي المعبر عنها بالعالمين

في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ [الأنبياء: 107]، بنور النبي ﷺ، عدد خلقه وعدد كلماته هو الرحمة الواسعة كل شيء، فحديث جابر المتقدم تفصيل بعض إجمال هذه الآية.

وليكن هذا التقرير منك على بال، فإنه ينفعك إن شاء الله تعالى في فهم قول الأشعري رحمه الله تعالى: «وجود كل شيء عين حقيقته» بالمعنى الذي فسره به في المواقف.

وأما وجه تسمية النور المحمدي عَماءً فهو أن العماء على ما في القاموس: السحاب المرتفع الرقيق أو الأبيض، والكل مناسب، فإنه ﷺ من حيث إن الأكوان إنما فصلت من نوره، كان مرتفعا عليها ومحيطا بها، ومن حيث إنه سبب الحياة المعنوية بل والحسية للأولين والآخرين مع بطونه في زمن الأولين، وأكثر زمن من الآخرين، يناسب السحاب الممطر الرقيق، ومن حيث إنه نور منكشف للناظرين إليه، يناسب السحاب الأبيض، ثم إنه ﷺ واسطة بين الحق والخلق في الفيض الحسي والمعنوي. كما أن العماء والغيم برزخ بين السماء والأرض.

وأما حديث: "أول ما خلق الله القلم " فلا يرد على حديث جابر الذي قدمنا، لأن حديث جابر يدل على أن أوليته إضافية لا حقيقية، فإنه صرح فيه بأنه لم يكن ذلك الوقت الذي خلق فيه نور محمد ﷺ لوح ولا قلم وكذا العرش، فإنه مسبوق بالماء الذي أذيب من أقسام نور النبي ﷺ بدليل حديث أبي رزين الأقر أن الماء قبل العرش.

والحاصل أن عندنا جوابين: الأول أن نحمل الماء والعماء على أنهما مرتبتان لوجود الحق سبحانه، والثاني أن يكون المراد بهما نور النبي ﷺ.

فإن قلتَ: سلمنا أن نور النبي ﷺ هو أول مخلوق، لكن قد يقال النور جوهر من الجواهر قطعا، والجواهر معلوم أنها تفتقر إلى مكان تحل فيه لأنها لا تستقل بالوجود دونه.

الجواب هو ما أجاب به شيخنا حجة الله أبو العباس التجاني ﷺ فإنه قال: «التحقيق أن الله تعالى قادر على أن يخلق الجواهر بدون محل تحل فيه، وكون

Copyrighted material

العقل يقدر استحالة هذا المعنى، لا يلتفت إليه لأن ذلك وهم حصل له من جري العادة بذلك، ولم يطلق نظره في فضاء الحقائق، ولو أطلق نظره فيه لعلم أن الله تعالى قادر على خلق العالم في غير محل، ومن كشف له عن الحقيقة الإلهية علم يقينا أن إيجاده بدون محل ممكن إمكانا صحيحا، وإذا كان هكذا، فالله تعالى خلق الحقيقة المحمدية جوهرا غير مفتقر إلى محل، والعقل لا مجال له هنا، والله أعلم».

ولما أراد الله أن يخلق الخلق قسم ذلك النور، أي اقتبس منه أربعة أجزاء: فخلق من الجزء الأول القلم، ومن الثاني اللوح، ومن الثالث العرش، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء فخلق من الأول حملة العرش، ومن الثاني الكرسي، ومن الثالث باقي الملائكة، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول السماوات، ومن الثاني الأرضين، ومن الثالث الجنة والنار، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين، ومن الثاني نور قلوبهم، وهو المعرفة بالله، ومن الثالث نور إنسهم وهو التوحيد: لا إله إلا الله محمد رسول الله، الحديث.

وفي حديث سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ: يا عمر، أتدري من أنا؟ أنا الذي خلق الله ﷻ قبل كل شيء نوري فسجد لله فبقي في سجوده سبعمائة عام، فأول كل شيء سجد لله نوري ولا فخر، يا عمر، أتدري من أنا؟ أنا الذي خلق الله العرش من نوري، والكرسي من نوري، واللوح من نوري، والقلم من نوري، ونوّر الأبصار من نوري، والعقل الذي في رؤوس الخلق من نوري، ونور المعرفة في قلوب المؤمنين من نوري، ولا فخر.

إن قلتَ حديث جابر هذا وعمر يدل على أن نور النبي ﷺ أول مخلوق، وأن منه تفصيل الكائنات علوا وسفلا، وحديث أبي هريرة يدل على أن الذي هو كذلك هو الماء. قال السيوطي في كتابه " الدر المنثور " في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: 30] أخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي، في "الأسماء والصفات " عن أبي هريرة ﷺ قال «: قلت يا رسول الله إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء، قال: كل شيء خلق من الماء».

وحديث أبي رزين الذي أورده صاحب " الدر المنثور " أيضا حين قال: «وأخرج الطيالسي وأحمد والترمذي، وحسنه، وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر، وأبو الشيخ في "العظمة"، وابن مردويه والبيهقي في "الأسماء والصفات " عن أبي رزين قال: قلت يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: كان في عماء، ما تحته هواء، وما فوقه هواء، وخلق عرشه على الماء».

ووجه دلالته أن حديث أبي رزين المذكور أن " أين " سؤال عن المكان، ومن المعلوم المعروف أن المكان غير الكائن فيه مغايرة حقيقية غير اعتبارية. وقد صح: كان الله ولم يكن شيء غيره، فكل ما سوى الله تعالى فهو مخلوق حادث. ومن لوازم ذلك أن يكون الحق تعالى غير متحيز، إذ لا مكان في الأزل بنص: «كان الله ولم يكن شيء غيره»، فلو كان متحيزا للزم وجود الغير معه أزلا، لكن الغير منفي الأزل بنص الحديث، ومع ذلك، أي مع كونه غير متحيز، لم ينكر النبي ﷺ على الصحابي سؤاله بأين، بل أقره عليه وأجاب بما أجاب، فدل ذلك على أن الحق وإن لم يكن متحيزا صح أن ينسب له كينونة في مكان على وجه يليق بجلال ذاته، وهو، أي حديث أبي رزين، دليل على أن " أين " في لغة العرب ليس مختصا بالسؤال عن حصول الجسم في المكان، بل هو السؤال عن حصول الموجود في الحيز على الوجه اللائق بذلك المسؤول عنه، فيعم ما ليس بجسم ولا جوهر. ولا يلزم من حديث المكان المستلزم بحديث تلك النسبة قيام الحوادث بذات الحق سبحانه، لأن ذلك الحصول في الحيز صفة اعتبارية لا وجودية، أي لا وجود لها في الخارج، وتجد الاعتبارات متفعلا على صحته بين العقلاء كما صرح به في "المواقف"، فيكون إذا كان العالم حادثا بجميع أجزائه.

وقلنا: إن "أين" سؤال عن المكان على الوجه المعروف من كونه مغايرا لصاحبه مغايرة حقيقية، ولكن مع كونه غير متحيز، يصح أن ينسب إليه الأين على الوجه اللائق بجلال عظمته، ظهر لك أن المراد بالخلق في قول الصحابي: "قبل أن يخلق الخلق " ما سوى المكان الذي يسأل عنه بأين، مع اعتقاد أن ذلك المكان أيضا مخلوق حادث.

وإذ قد أجيبت عن سؤاله بالعماء، فالعماء أول مخلوق، هذا على تقدير حمل أين على الوجه المعروف المذكور المستلزم، للتخصيص بما سوى الله تعالى من المخلوقات، فيكون أيضا سؤاله عن مظهر التجلي، وعلى هذا التقدير الذي تكفي المغايرة الاعتبارية للمسؤول عنه بأين، والمعنى حينئذ أن على التقدير الثاني: في أي مظهر كان متجليا ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ أي حيث كان الله ولم يكن شيء غيره، فالعماء على هذا التقدير الثاني يفسر بما فسره به أهل التحقيق من أنه عبارة عن المظهر الجامع للحقائق الإلهية والكونية. وأما التعين الأول المسمى بالأحادية جامعة للحقائق كلها إجمالا، والواحدية تفصيلا، فافهم هذا المشرب العظيم، واحمد ربك الجليل الكريم.

والجواب عن ذلك هو: ما أجاب به الشيخ برهان الدين الكوراني قُدس سره فإنه قال ما نصه: «قلت وجه الجمع هو أن يقال: المراد بالماء والعماء هو نور النبي ﷺ، عُبر عنه بأسماءٍ مختلفة للإشارة إلى جامعية اشتماله على اعتبارات مختلفة، ولا استبعاد في تسميته النور ماء، فإن الله تعالى قد سمى القرآن نورا حيث قال: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: 174]، ثم سماه ماء في قوله: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد: 17] بناء على ما في "الدر المنثور " في قوله: «أخرج أبو الشيخ عن ابن عيينة في الآية قال: أنزل من السماء قرآنا فاحتملته عقول الرجال»، وهو ﷺ في أول مراتب خلق وإن لم يكن ماء عنصريا.

ولما أراد الله جل جلاله إظهار هذا النور الأحمدي، والسر الأبهر المحمدي، ألهم سيدنا عبد المطلب فخطب آمنة المصونة، والياقوتة المكنونة لولده سيدنا عبد الله، وكانت أحسن أهل زمانها شرفا وحسبا، وجاها وأعلاهن قدرا ونسبا، فتزوجها وبنى بها، فحملت بسيد العالمين، وممد الأنبياء والمرسلين، فزاد فخرها، وعلا على الأكوان قدرها:

فهَنيـــئا بـــه لآمـــنَةِ الفَـــضْـ ـلِ الَّـــذي شُـــرِّفَت بِـــه حَـــوّاءُ
مَـــنْ لحَـــوّاءَ أنَّهـــا حَملـــتْ أحْـ ـمـــدَ أوْ أنَّهـــا بِـــه نُفَـــساءُ

وقد نقل ابن عبد البر عن الزبيري أنها حملت به في أيام التشريق في شِعب أبي

طالب عند الجمرة الوسطى، وقيل في عاشر المحرم، حكاه ابن عساكر، وهذا لا يوافق ما عليه الجمهور كما يأتي إن شاء الله.

وظهر لمحمد ﷺ كرامات، وخوارق للعادات، ونودي في السماء والأرض: ألا إن النور المكنون، والسر المخزون، قد استقر الليلة في بطن آمنة المصون. فيا طوبى لها، ثم يا طوبى لها، وتبرقع عرش الرحمن بالوقار، وتذرع كرسيه بالفخار، وابتهجت سدرة المنتهى، لِما كساها من الحلل والبها، والجنان تزخرفت، والحور من القصور أشرفت، والملائكة تمنطقت واصطفت، وبالعرش احتفت، ونودي: يا رضوان افتح أبواب الجنان، ويا مالك أغلق أبواب النيران، فإن النور المخزون، والسر المكنون، الذي هو في خزائن القدرة، في هذه الليلة إلى بطن آمنة قد انتقل، وأصبحت الأصنام منكوسة، وأسِرّة الملوك على الأرض معكوسة، ولم تبق دابة في الأرض إلا نطقت وقالت حُمل برسول الله ﷺ ورب الكعبة، وهو إمام الدنيا. وسميت تلك السنة بسنة الابتهاج، لما أعطى الله فيها من الخيرات لصاحب اللواء والتاج، وقيل لآمنة: "إنك حملت بخير الأنام"، قالت: "وما شعرت بأني حملت به، ولا وجدت ثقلا ولا وحما لحمله، إلا أني أنكرت رفع حيضتي، إذ لم يكن رفْعُها من عادتي".

ولما كملت لمدة حمله ﷺ شهران، وقيل لما كملت له من العمر عامان وثلث عام، قال الدولائي: هذا قول الأكثر، وقيل تسعة أشهر، وقيل سبعة أشهر، والأول هو الذي جزم به ابن إسحاق وصححه الذهبي، وقال ابن كثير: إنه المشهور، واستدل له بما في المستدرك عن قيس بن مخزمة: توفي أبو النبي ﷺ وأمه حبلى به، قال الحاكم: على شرط مسلم، وأقره الذهبي، ورجحه الواقدي وابن سعد والبلاذري، وقال ابن الجوزي: إنه قول الجمهور، والقسطلاني: إنه الراجح، توفي سيدنا عبد الله وهو ابن ثمان عشرة سنة على ما صححه ابن حجر والسيوطي وغيرهما، وقيل ابن خمس وعشرين سنة، ذكره الواقدي، ودفن بدار النابغة، وقيل بالأبواء.

ولما توفي؛ رثته زوجته آمنة فقالت:

عَفا جانِبُ البَطْحاءِ مِن آلِ هاشِمٍ وجاورَ لَحْداً خارِجاً في الغَمائِمِ
دَعَتْه المَنايا دَعْوةً فأجابَها وما تَركَتْ في الناسِ مِثلَ ابنِ هاشمِ
عَشيَّةَ راحوا يَحمِلونَ سَريرَه تَعاوَرهُ أصْحابُه في التَّزاحُم
فإنْ تَكُ غالَتْهُ المَنونُ وريبُها فقدْ كانَ مِعطاءً كَثيرَ التَّراحُم

وقالت الملائكة: إلهَنا وسيدَنا ومولانا، وعالمَ سرنا ونَجوانا، بقي نبيك يتيما لا أبا له، فقيرا لا مال له، فقال المولى جل علاه: يا ملائكتي أنا أولى به من أمه وأبيه، أنا كافله ومربيه، أنا ناصره وراعيه، أنا رازقه وكافيه، فصَلوا عليه تقربا وتكريما، وتبركوا باسمه تعظيما.

وقد قيل لسيدنا جعفر الصادق: لِمَ يُتّم النبي ﷺ؟ ، فقال: لئلا يكونَ عليه حق لمخلوق، نقله أبو حيان في تفسيره الكبير المسمى بالبحر:

أخَذَ الْإلهُ أبا الرَّسولِ ولَم يَزلْ برَسولِه الفَرْدِ اليَتيمِ رَحيمَا
نفْسي الفِداءُ لمُفْرَدٍ في يُتْمِهِ والدُّرُّ أحْسنُ ما يَكونُ يَتيما

قال ابن العماد في "كشف الأسرار ": «إنما رباه يتيما لأن أساس كل صغير كبير، وعقبى كل حقير خطير، ولينظر ﷺ إذا وصل إلى مدارج عزه، إلى أوائل أمره، ليعلم أن العزيز من أعزه الله تعالى، وأن قوته ليست من الآباء والأمهات ولا من المال، بل قوته من الله تعالى، وأيضا ليرحم الفقراء والأيتام».

واختُلف في مدة حمله، وصحح في "الإبريز" أنه عشرة أشهر، وقيل ثمانية، وقيل سبعة، وقيل تسعة، قال في "الغرر " وهو الصحيح وبه حدد مغلطاي، وحكاه عن أبي زكرياء قال: بقي النبي ﷺ في بطن أمه تسعة أشهر كملا، لا تشكو وجعا ولا مغصا ولا ريحا ولا ما يعرض لذوات الحمل من النساء، وكانت تقول: والله ما رأيت من حمل هو أخف منه ولا أعظم بركة.

وروى أبو نعيم عن عمر وابن قتيبة قال: سمعت أبي، وكان من أوعية العلم، قال: لما حضرت آمنةَ الولادةُ قال الله لملائكته: افتحوا أبواب السماء كلها وأبواب الجنان، وألبِست الشمس يومئذ نورا عظيما، وكان قد أذن الله تعالى تلك السنةِ لنساء الدنيا أن يحملنَ ذكورا كرامة لسيدنا محمد ﷺ، الحديث.

وقد تكلم الحفاظ فيه، وروى أبو نعيم أيضا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت آمنة تحدث وتقول: أتاني آت حين مر بي مِن حملي ستةُ أشهر في المنام وقال لي: يا آمنة، إنك قد حملت بخير العالمين، فإذا ولدته فسميه محمدا، واكتمي شأنك، قالت: ثم أخذني ما يأخذ النساء، تعني من الطلق الذي هو وجع الولادة، ولم يعلم بي أحد لا ذكر ولا أنثى، وإني لوحيدة في المنزل، وعبد المطلب في طوافه، فسمعت وجبة، أي هدة عظيمة، وأمرا عظيما هالني، ثم رأيت كأن جناح طائر أبيض قد مسح على فؤادي، فذهب عني الرعب وكل وجع أجده، ثم التفت فإذا أنا بشربة بيضاء ظننتها لبنا وكنت عطشى، فشربتها فإذا هي أحلى من العسل، وأصابني نور عال، أي نور عظيم، ثم رأيت نسوة كالنخل طوالا كأنهن من بنات عبد مناف يحدّقن بي، فبينما أنا أتعجب وأقول: واغوثاه، من أين علمن بي؟ قال في غير هذه الرواية، فقلن لي: نحن آسية امرأة فرعون، ومريم ابنةُ عمران، وهؤلاء من الحور العين.

واشتد بي الأمر وإني أسمع الوجبة في كل ساعة أعظم وأهول مما تقدم، فبينما أنا كذلك إذا بديباج أبيض، قد مُدَّ بين السماء والأرض، وإذا بقائل يقول: خذاه، يعني إذا وُلد، عن أعين الناس، فقالت: ورأيت رجالا قد وقفوا في الهواء، بأيديهم أباريقُ من فضة، ثم نظرت فإذا أنا بقطعة من الطير قد أقبلت حتى غطت حجرتي، مناقيرُها من الزمرد، وأجنحتُها من الياقوت، فكَشف الله عن بصري فرأيت مشارقَ الأرض ومغاربَها، رأيت ثلاثةَ أعلام مضروبات: علما بالمشرق، وعلما بالمغرب، وعلما على ظهر الكعبة، فأخذني المخاض فوضعت سيدنا محمدا ﷺ:

نَسيمَ الصَّبا أهْلا وسَهْلاً ومَرْحبَا ... قَدمْتَ فأقدَمْتَ السُّرورَ إلى الرُّبا

وجَدَّدْتَ في كُل القُلوبِ مَسرَّةً ... ونَشْرُك أضْحى في الوُجودِ مُطيّبا

مَتى أنْظرِ الْأعْلامَ يا سَعدُ قد بدَتْ ... ويصْبح قلْبي مِنْ حِماهُ مُقرَّبا

فقدْ زَمْزمَ الحادي بوَضْع مُحمَّدٍ ... نَبيّ كَريم للشَّفاعَةِ مُجْتَبَى

رَسولٌ عَظيمٌ مُصْطفى ذو مَهابَةٍ ... لَهُ اللهُ بالذِّكْرِ المُرَفَّعِ قَدْ حَبا

فلَوْلاهُ ما سارَ الحَجيجُ لمَكَّةٍ ... ولا حَنَّ مُشْتاقٌ لنَجْدٍ ولا صَبا

فقوموا أيها المحبون لهذا السيدِ العظيم، تبجيلا لشأنه فإنه المستحق لجميع الخيرات والتكريم، وقولوا بلسان خاضع، وقلب خاشع:

هـذا هُـو المُخْـتار وَالـبَدْرُ الـذي ... كُـل الـبُدورِ خَـضعْنَ تَحـتَ هِلالِـه
مـا إنْ لَـه فـي العالَمـينَ مُماثِـلٌ ... كَـلا ولا فـي الكَـوْنِ مِـن أشْـكالِه
أسْـرى بِـه فـي لَـيْلةٍ سَـعدِيَّةٍ ... وَطـئَ الـسَّماواتِ العُـلا بـنِعالِه
فالمُلـكُ والمَلكـوتُ طَـوعُ يَميـنِه ... والكَـونُ والأكْـوانُ تَحـتَ شِـمالِه
حَتـى دَنـا مِـن قـابِ قَوْسـيْنِ العُـلا ... وسَـعى لَـه المَعـشوقُ فـي إقـبالِه
وَرأى وشـاهَدَ ذا الجَـلالَ بعَيْـنِه ... مـا زاغَ مـنهُ الطـرْفُ عـنْدَ مَآلـهِ
كَـلا ولا كَـذَبَ الفُـؤادُ وكَـيْفَ لا ... وهُـو الحَبيبُ دُعـي لأجْـل وِصـالِهِ
هَذا الذي قَد خُطَّ في العَرشِ اسْمُه ... بـصِفاتِه ونُعـوتِهِ وجَلالِـهِ
هَـذا الـذي رامَ الكَلـيمُ مَقامَـه ... فانْـدَكَّ مـنهُ الطـورُ عِـندَ مَقالِـهِ
هَـذا الَّـذي جـاءَ المَـسيحُ مُبـشِّرا ... بقُدومِـه مُتمَـسِّكا بحِـبالِهِ
هَـذا الَّـذي سَـفرَ اللِّـثامَ فأطْـرقَتْ ... مُقَـلُ القُلـوبِ مَهابَـةً لجَمالِـهِ
هـذا الَّـذي فـي الحَـشرِ يُعقَـد فَـوْقَه ... ذاكَ اللِّـوا، والرُّسُـلُ تَحـتَ ظِلالِـهِ
يـا حَـضرَةَ الرُّسُـلِ الـذي هامـوا بِـه ... والعارِفـونَ تَمَـسكوا بخَـيالِهِ
صَـلى عَلـيْكَ اللهُ مـا ظَهَـرَ الدُّجـى ... وضَـحى وهَـلَّ مُهَلِّـلٌ بهِلَالِـهِ

قالت مولاتنا آمنةُ رضي الله عنها: «فنظرتُ إليه ﷺ، فإذا هو ساجد قد رفع أصبعه كالمتضرع المبتهل، ثم رأيت سحابة بيضاء قد أقبلت من السماء حتى غشيته فغيبته عني، ثم سمعت مناديا ينادي: طوفوا به مشارق الأرض ومغاربها وأدخلوه البحار ليعرفوه باسمه ونعته وصورته، ويعلموا أنه سمي فيها الماحي لا يبقى شيء من الشرك إلا محي في زمانه، ثم انجلت عني في أسرع وقت»، الحديث.

وروى الخطيب البغدادي أن آمنة رضي الله عنها قالت: «لما وضعته ﷺ رأيت سحابة عظيمة لها نور، أسمع فيها صهيل الخيل، أي أصواتها، وخفقان الأجنحة، أي اضطرابها، وكلام الرجال، أي الملائكة المتشكلين بشكلهم، حتى غشيته، أي أقبلت عليه، وغيب عني فسمعت مناديا ينادي: طوفوا بمحمد ﷺ مشارق الأرض

ومغاربها، وأدخلوه البحار ليعرفوا اسمه ونعته وصورته في جميع الأرض، واعرضوه على كل روحاني، أي من فيه روح من الجن والإنس والملائكة والطيور والوحش، وأعطوه خلقَ آدم، ومعرفةَ شيت، وشجاعةَ نوح، وخلةَ إبراهيم، ولسانَ إسماعيل، ورضى إسحاق، وفصاحةَ صالح، وحكمةَ لوط، وبشرى يعقوب، وشدةَ موسى، وصبرَ أيوب، وطاعةَ يونس، وجهادَ يوشع، وصوتَ داوود، وحب دنيال، ووقارَ إلياس، وعصمةَ يحيى، وزُهد عيسى، وغمسوه في أخلاق النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، قالت ثم انجلى عني أي ما ذكر من السحابة، فإذا به قد قبض على حريرة خضراء مطوية طيا شديدا ينبع من تلك الحريرة ماء، وإذا بقائل يقول: بخ بخ، قَبض محمد ﷺ على الدنيا كلها، لم يبق خلق من أهلها إلا دخل طائعا في قبضته، قالت: ثم نظرت إليه ﷺ فإذا هو كالقمر ليلة البدر، ريحه يسطع كالمسك الأذفر، أي الذكي، وإذا أنا بثلاثة نفر في يد أحدهم إبريق من فضة، وفي يد الآخر طست من زمرد أخضر، وفي يد الثالث حريرة بيضاء فنشرها فأخرج منها خاتما تَحارُ أبصار الناظرين دونه، فغسله من ذلك الإبريق سبع مرات، ثم ختم بين كتفيه بالخاتم، ولفه في الحريرة، ثم احتمله فأدخله بين أجنحته ساعة ثم رده إلي».

وروى ابن عائذ عن ابن عباس قال: لما ولد رسول الله ﷺ قال في أذنه رضوان خازن الجنان: أبشر يا محمد، فما بقي لنبي علم إلا وقد أُعطيته، فأنت أكثرهم علما، وأشجعهم قلبا:

كُلُّ المَكارِمِ تَحْتَ طَيِّ بُرودِه ... ولَقد أضاءَ الكَوْنُ عِندَ وُرودِه

والبَحْرُ يَقْصُرُ عَنْ مَوارِدِ جودِه ... إنْسانُ عَينِ الكُلِّ سِرُّ وُجودِه

فصار مولده موسما وعيدا، وزمانه زمانَ خير في جميع الأزمان فريدا، فالأطيار ترنو، والخيرات تدنو، والوحوش تزهو فرحا وطربا وتقول: ولد المصطفى المجتبى:

وُلدَ الحَبيبُ وخَدُّهُ مُتوَرِّدُ ... وَالنورُ في وَجناتِه يَتوقَّدُ

وُلدَ الذي لَولاه ما كان النَّقا ... كَلاً ولا ذُكِرَ الحِما والمَعْهَد

جِبْـريلُ نـادى فـي مَحاسـنِ وصْـفِه هَــذا مليـحُ اللَّــونِ هــذا أحْمَــدُ
هَـذا كَحيلُ الطَّـرفِ هـذا المُـصْطفى هَــذا جَمـيلُ الـوَجْهِ هــذا الأوْحَــدُ
هَـذا جَمـيلُ الـنَّعتِ هَـذا المُرتَـضى هَــذا حَبــيبُ اللهِ هَــذا الــسيِّدُ
هَـذا الـذي خُلعَـتْ علـيْهِ مَلابِـسٌ ونَفــائِسٌ فنَظيــرُها لَا يــوجَد
قالــتْ ملَائِكــةُ الــسَّماءِ بأسْــرِها وُلــدَ الحَبــيبُ ومِــثْلُه لَا يــولَدُ
وُلـدَ الـذي لـوْلَاه مـا ذُكـرتْ "قُـبا" كَـلاَّ ولَا كـانَ" المُحـصَّبُ " يُقـصَدُ
إنْ كـانَ يوسُـفُ قـد أفـاقَ جَمالـهُ أقْــسمْتُ ذا المَولــودُ مِــنْهُ أزْيَــدُ
إنْ كــانَ إبــراهيمُ أعْطِــيَ رُشْــدَهُ تــا اللهْ ذا المَولــودُ مِــنهُ أرْشَــدُ
إنْ كـانَ قـدْ أُعْطـى الكَلـيمُ عـبادةً فمُحمَّــدٌ مِــنْهُ أجَــلُّ وأعــبَدُ
يــا عاشِــقينَ تَولَّعــوا فــي عِــشقِهِ هَــذا جَمــيلُ الــوَجْهِ هَــذا المُفْــرَدُ
بُــشْرى لآمِــنَةٍ بــرُؤيَةِ وَجهِــهِ هَــذا هُــو الجــاهُ العَظــيمُ الأزْيَــدُ

وقد ولد ﷺ في شهر ربيع، فزاد حسنا وبهاء ذلك الربيع، فأطربت الدنيا زهوا، وزاد الأرض بابتسامها عن اليواقيت والدرر علوا:

هَـذا الـرَّبيعُ الـذي بالبِـشْرِ يَبتَـسِمُ لأجْــلِ طَــهَ الــذي بــاللهِ مُعتَــصِمُ
خَيْــرُ الأنــامِ حَبــيبُ اللهِ شــافعُنا غَـيثٌ وعَـونٌ لَـهُ الْإحسانُ والكَـرَمُ
فـي يَـوْم الاثنيْنِ أنْـوارُ الحَبيبِ بَـدتْ مِـن مَكـةٍ وانْجَلـتْ حَقـا بـهِ الظُّلَـمُ
وأصْـبحَ الكَـونُ مَـسْرورا وَمُبـتهِجا والأرْضُ تَـزْهو بِـه والبَـيتُ والحَـرَمُ
تَقــولُ آمِــنةٌ فــي يَــومِ مَــولِدِه: جـاءَ الـسُّرورُ لـنا والفَـضلُ والـنِّعَمُ
سُمِّيتَ أحْمدَ، والباري الكَريمُ كَذا سَـمّاهُ مِـنْ قَـبلِ مـا يَجْـري بـهِ القلَـمُ
فـي لَـوْح قُدرَتِـه باسْـمِ الحَبيبِ جَرى مُحمَّــدٌ صَــفوَةُ الــباري لَــه الــذِّمَمُ
وعـندَ وَضْـعي رَأيـتُ الطَّيـرَ عاكِفـةً حَوْلـي، وقـدْ أقـبلَتْ للبَـيتِ تَلتَـثِمُ
وجاءَنــي طائِــرٌ أرْخــى بأجــنِحَةٍ عَلــى الفُــؤادِ فَــزالَ الــسُّقْم وَالألَــمُ
ومـا لَقِـيتُ بحَملـي فـيه مِـن ألَـمٍ مِـثلَ النِّـساءِ التـي أوْدى بِهـا الـسقَمُ
وخَــرَّ فَــوقَ الثَّــرى لله خالقِــهِ مِـثْلَ اللَّبـيبِ الـذي للأجْـرِ يَغتَـنِم
أصْـنامُ مَكـةَ خَـرَّتْ عِـندَ مَـولدِه وأخْمـدَ الـنارَ جَهْـرا وهْـي تَـضْطرِمُ

وقَـد غَـدا هارِبـاً إبْلـيسُ مُنذَعِـراً وجُـنْدُه بـسِهامِ اللهِ تَنْهـزِمُ
مـا نـالَ فَخـرَ النَّبـيِّ المُـصْطَفى أحـدٌ مِـنَ الْأنـامِ لـهُ البُـرْهانُ والحلـمُ
مـاذا أقـولُ بوَصْـفي فـي الرَّسـولِ وقَـد أثْنـى عَلـيهِ إلَـهٌ واحِـدٌ حَكَـمُ
صَـلى عَلـيهِ إلـهُ العَـرْشِ مـا طَلَعَـتْ شَـمْسٌ ومـا لَاحَ ثَغـرُ البَـرْقِ يَبتَـسِمُ

وقال آخر:

يقـولُ لَـنا لِـسانُ الحـالِ مـنْهُ وقَـوْلُ الحَـقِّ يَعْـذُبُ للـسَّميعِ
فوَجْهـي والـزَّمانُ وشَـهْرُ وَضْـعي رَبـيعٌ فـي رَبـيعٍ فـي رَبـيعِ

كما في "السبل" كان مولده في فصل الربيع، وهو أعدل الفصول، ليله ونهاره معتدلان بين الحر والبرد، ونسيمه معتدل بين اليبوسة والرطوبة، وشمسه معتدلة في العلو والهبوط، وقمره معتدل في أول درجة من الليالي البيض، وينعقد في سلك هذا النظام ما هيأه الله تعالى له من أسماء مربيه، ففي الوالدة والقابلة الأمن والشفاء، وفي اسم الحاضنة البركة والنماء، وفي مرضعته الثواب والحلم والسعد، **فافهم**، والله أعلم.

تنابيه

الشبيه الأول:

قال ابن عبد البر: لا خلاف أنه ﷺ ولد عام الفيل لأربعين عاما أو اثنين وأربعين عاما مضت من ملك كسرى أنو شروان.

روى الحاكم في مستدركه عن قباث بن أشتم: تنبأ رسول الله ﷺ على رأس أربعين من عام الفيل، وفيه أيضا عنه: يوم الفيل. قال ابن حجر: المحفوظ لفظ العام، وقد يطلق اليوم ويراد به الوقت كما يقال: يوم الفتح ويوم بدر، فإن كان المراد حقيقة اليوم، فيكون أخص من الأول، وبه صرح ابن حبان في تاريخه فقال: ولد عام الفيل في اليوم الذي أرسلت فيه الطير الأبابيل، قال: ثم وجدت الحديث عن أبي سعيد عن يحيى بن سعيد قال: يوم الفيل يعني عام الفيل. وجزم مغلطاي باليوم فقال: «ولد عند طلوع الفجر يوم أرسل الله الأبابيل».

الشبيه الثاني:

ما تقدم من كونه ﷺ ولد في ربيع الأول هو الذي حكى عليه ابن الجوزي في "الصفوة " الاتفاق، لكن في دعوى الاتفاق نظر، فإنه قيل إنه ولد في صفر وقيل في رجب، وهذا القول لم يصح، وفي "إشراق بدر على عدد أهل بدر " لسيدي أحمد بن علي السوسي: ولد في ربيع الأخير، وقيل في رمضان، حكاه اليعمري ومغلطاي، وروي هذا عن ابن عمر لكن بإسناد لا يصح، وهو موافق لمن قال: إن أمه حملت به أيام التشريق، وقيل يوم عاشوراء، وهو قول غريب، وقد فضل بسببه هذا الشهر المبارك على غيره من الشهور، والتفضيل ليس بذاته بل إنما عرض بسببه ﷺ بخلاف رمضان، وكذا الأشهر الحرم، فإن أفضليتها ذاتية. قالوا: وإنما لم يولد في رمضان ولا في غيره من الأشهر الحرم دفعا لتوهم أنه شرف بذلك، بل الزمان هو المشرف به ﷺ نظير ما قيل في المدينة المنورة.

وعلى أنه في ربيع فاختلف في أي يوم منه:

- **القول الأول**: أنه لليلتين خلتا منه، وعليه اختصر عبد الغني في سيرته ونسب للجمهور، قال المناوي: وهو الأصح، وصدر به مغلطاي.
- **القول الثاني**: أنه لثمان خلون منه، قال ابن حجر - وانتصر له كثيرون - قال القسطلاني: وهو اختيار أكثر أهل الحديث. وكان سيدي أحمد بن المبارك يشهره، ونص على ذلك في كتابه " الإبريز"، ونقل ابن عبد البر أنهم صححوه، ورجحه ابن دحية، ونقل عن ابن عباس وجبير بن مطعم واختاره الحميدي كشيخه ابن حازم، وحكى القضاعي في "عيون المعارف " إجماع أهل الزيج، أي الميقات، عليه.
- **القول الثالث**: أنه لعشر خَلوْن منه، رواه الدمياطي عن جعفرَ الباقر، وصححه وتبعه عليه الحلبي.
- **القول الرابع**: أول اثنين منه، وذكره في "المقدمات " لابن رشد.
- **القول الخامس**: أنه أول يوم من ربيع الأول.
- **القول السادس**: أنه اليوم السادس.

- **القول السابع:** أنه اليوم الثالث عشر.
- **القول الثامن:** أنه اليوم الخامس عشر.
- **القول التاسع:** لاثنتين عشرة خلتا منه، وهذا القول عليه العمل مشرقا ومغربا، وهو قول ابن إسحاق وغيره، قال ابن كثير: وهو المشهور عن الجمهور، وبالغ ابن الجوزي وابن الجزار فنقلا فيه الإجماع، ورواه ابن أبي شيبة في "المصنف " عن جابر وابن عباس رضي الله عنهما.

الشبيه الثالث:

لا خلاف أنه عليه الصلاة والسلام ولد يوم الاثنين، ولذا أوتي تفضيله على غيره من الأيام، أي يوم الجمعة، لأن فضيلة هذا عرَضية، وذاك ذاتية على ما تقرر. وفي مسند أحمد عن ابن عباس: ولد المصطفى يوم الاثنين، واستنبأ يوم الاثنين، وهاجر من مكة إلى المدينة يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين.

وروى أحمد ومسلم وأبو داوود عن ابن قتادة: «يوم الاثنين يوم ولدت فيه، وأنزل علي فيه»، وفي ذلك دلالة على أنه أفضل الأسبوع بعد يوم الجمعة، وفي بعض طرق الحديث عند ابن عساكر: وأنزلت سورة المائدة يوم الاثنين، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين، وكانت وقعة بدر يوم الاثنين. قال ابن عساكر: لكن المحفوظ يوم الجمعة.

الشبيه الرابع:

اعلم أن الذي عليه المحققون أنه ولد بعد طلوع الفجر، وبه جزم ابن دحية ومغلطاي وغيرهما، وصرح في "الإبريز " بأنه ولد ليلا عند وقت ابن حمو بالقرويين بفاس، وتأخر الخلاص إلى بعد طلوع الفجر. قال بعضهم: وورد ما يدل على أنه ولد ليلا في حديث رواه الحاكم عن عائشة رضي الله عنها: كان بمكة يهودي يتجر فيها، فلما كانت الليلة التي ولد فيها المصطفى قال: يا معشر قريش، هل ولد فيكم الليلة مولود؟ قالوا: لا نعلم، قال: ولد في هذه الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة، بين

Copyrighted material

كتفيه علامة النبوءة شعرات كأنهن عرف فرس، الحديث.

وعلى أنه ولد ليلا قيل إن ليلة مولده أفضل من ليلة القدر، قال المناوي: واستدل قائله بوجوه كلها مدخولة لا تقاوم النص على أفضلية ليلة القدر على جميع الليالي، ويلزم قائله أن يوم الاثنين أفضل الأيام حتى يوم عرفة والجمعة بناء على الأصح أنه ولد نهارا، وهو خرق للإجماع.

قلت: يتعين أن تكون تلك الليلة المباركة، أعني التي ولد فيها المصطفى ﷺ بخصوصها أفضل الليالي حتى ليلة الجمعة وغيرها إكراما لنبينا محمد ﷺ، إذ ما شرفت بل ولا وجدت إلا من أجله ﷺ. وبقولنا " بخصوصها " لا يلزم ما قاله المناوي من أن يوم الاثنين أفضل، يعني مطلقا، فافهم، والله أعلم.

ثم بعد كتابتي هذا وقفت على كلام الناس، قال في "المقنع":

أَفْضلُ ما في العامِ مَوْلدُ النَّبِي صَلّى عَلَيْهِ اللهُ لَيلَةَ بِي[1]

قال شارحه في شرحه الكبير أثناء شرحه لهذا البيت ما نصه: «فإن قلت: ظاهر قوله، أفضل ما في العام أن مولده ﷺ أفضل أيام العام كلها حتى ليلة القدر التي قال الله فيها خير من ألف شهر»، قلت: نعم، هو كذلك.

حدثني شيخنا سيدي ومولاي، وسِمْطُ محياي، أبو محمد سيدي عبد الله بن علي بن طاهر الحسني أن الإجماع وقع على ذلك، ورأيت في "المعيار" أنها أفضل من ليلة القدر بنيف وعشرين وجها، فانظرها»، انتهى كلام شارحه. زاد الدادسي في شرحه لمنظومته: «ومثله أي مثل ما لصاحب " المعيار " لابن مرزوق في "جنا الجنتين في فضل الليلتين "»، انتهى كلام الدادسي.

قلتُ: ظاهر كلامِ مَن جلبْنا نقولَهم أن الأفضلية المذكورة خاصة بيوم ولادته، أي باليوم الذي خرج فيه للدنيا، ولا يبعد أن يكون ذلك عامًا في كل يوم من كل عام جسامة له كرامة لنبينا محمد ﷺ.

---

(1) في قوله (بي) إشارة إلى سنة ولادته ﷺ وهي حاصل مجموع الباء والياء، أي 12، وفق حساب الجُمل.

Copyrighted material

ومـــا عَجَـــبٌ إكْـــرامُ ألْـــفٍ لِـــواحِدٍ لَـــنَفْسٍ تُفَـــدّي ألْـــفَ نَفْـــسٍ وتُكْـــرِمُ

الشبه الخامس:

قال بعضهم: ورد أن النبي ﷺ لم يخرج من محل الولادة المعهود بل خرج من ثقبة تحت السرة. ونقل ذلك عن ابن سبع وابن رشد في البيان. قال الشيخ المسناوي في جواب له ما مضمونه أن هذا النقل لا يصح، وفي كلام السيوطي ما يدل على نفيه، وقصد من قال بهذا أن ذلك نقص في الجملة وفيه نظر، بل ذلك من أحد الأمور البشرية التي لا نقص فيها، إذ لا فرق بينه وبين سائر التطورات الخلقية من الكون نطفة، وفي الصلب، وفي الرحم، إلى غير ذلك. لكن مع اعتقاد كمال الطهارة والنزاهة عن الأقدار، هذا محصل ما انفصل عليه المسناوي.

وروى شيخنا حجة الله، القطب المكتوم أبو العباس التجاني ﷺ أن هذا الأمر لا يبعد، وبيّن وجه ذلك بما يُعلم من مراجعة "جواهر المعاني"، والله أعلم.

الشبه السادس:

روى ابن شاهين في "الناسخ والمنسوخ" عن ابن جداد العقيلي وله صحبة: ولد المصطفى بالردم، وختن به، واستبعث منه. وقول الحاكم: تواترت الأخبار أنه ولد ﷺ مختونا مسرورا لم يرد التواتر المصطلح عليه، بل الاشتهار والاستفاضة بين الناس.

وفي حديث الطبراني عن أنس بسند حسنه مغلطاي في "دلائل النبوة " أنه قال ﷺ: «من كرامتي على ربي أني ولدت مختونا ولم ير أحد سوءتي» أي عورتي.

وقال ابن الجوزي: «لا شك أنه ولد مختونا»، غير أن هذا الحديث قال المناوي بعد نقله: «لكن الناظم - يعني العراقي - نقل عن ابن العديم قال: لم يثبت من أحاديث ولادته مختونا شيء»، وأقره عليه وبه صرح ابن القيم في شرح "المواهب" وقال: «بل وصححها الضياء والسهيلي، وهو ما رواه الطبراني وابن عساكر عن أنس رفعه»، الحديث مقدم.

وقال بعضهم: «ليست ولادته مختونا من خصائصه، فقد أفاد بعض الحفاظ أن ثلاثة عشر نبيا ولدوا مختونين، وسردهم سبعة عشر، ونظمها لفوائد بقوله:

وسَـبْعَةٌ مـعْ عَـشْرٍ قَـدَّروا خُلِقـوا وهُـمْ خـتانٌ فخُـذْ لا زِلْـتَ مَأنوسـا
مُحمَّـدٌ آدَمُ إدريـسٌ شـيثُ وَنـو حٌ سـامٌ هـود شُـعَيْب مُوسـى
لـوطٌ سُـليْمان يَحْيـى صـالِحٌ زَكَـرِياء وَحَـنْظَلَة الـرّسُ مـع عيـسى

والحاصل أن في ختانه ثلاثة أقوال:

- أحدها أنه ولد مختونا؛
- الثاني ختنه عبد المطلب يوم سابعه وصنع له مأدبة، حكاه ابن عبد البر وغيره عن ابن عباس؛
- الثالث: "ختنه جبريل عند حليمة لما شق صدره"، رواه الطبراني في الأوسط، قال لذهبي: وهو منكر، الأرجح الأول.

الشبيه السابع:

قال ابن حجر: قد تكلم المصطفى في أول ما ولد، وذكر ابن سبع أنه قال: «الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا. وأخرج الطبراني والبيهقي عن العباس: قلت: يا رسول الله دعاني إلى الدخول في دينك، إني رأيتك في المهد تناغي القمر وتشير إليه بأصبعك، فحيث ما أشرت إليه، قال: قال: كنت أحدثه ويحدثني ويلهيني عن البكاء وأسمع وجبته أي: اضطرابه وحركته تحت العرش». قال الصابوني: وهذا غريب الإسناد والمتن.

قد تكلم جماعة في المهد جمعهم السيوطي فقال:

تكلـم فـي المهـد النبـي محمـد وموسـى وعيـسى والخلـيل ومـريم
وصـبي بحيـرة ثـم شـاهد يوسـف وطفـل لـدى الأخـدود يـرويه مـسلم
وطفـل علـيه مـر بالأمـة التـي يقـال لهـا تـرى ولا تـتكلم
ومـا شـهده فـي عهـد فـرعون طفلهـا وفـي زمـن الهـادي المـبارك يختـتم

الشبيه الثامن:

قال السخاوي: عمل المولد الشريف لم ينقل عن أحد من السلف الصالح في القرون الثلاثة الفاضلة، وإنما حدث بعد، ثم لا زال أهل الإسلام يعملون في شهره الـولائم الـبديعة ويتـصدقون ويظهـرون الـسرور، ويظهـر علـيهم بـركته، وهـذه

بدعة حسنة.

قال الحافظ ابن الجزري: "فإذا كان الكافر يعني أبا لهب، الذي نزل القرآن بذمه جوزي في النار أي يخفف عنه بفرحه ليلة مولد النبي ﷺ به، فما حال المسلم الموحد من أمته ﷺ يسر بمولده ويبذل ما تصل إليه قدرته في محبته ﷺ؟ لعمري ألا يكون جزاؤه من الله الكريم أن يدخله بفضله العميم جنات النعيم؟ "

ولا زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده عليه الصلاة والسلام، ويعملون الولائم ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم، وأول من أحدث ذلك، الملك المظفر أبو سعيد صاحب أربل، قال ابن كثير في تاريخه: كان يعمل المولد الشريف في ربيع الأول، ويحتفل فيه احتفالا هائلا، وكان شهما شجاعا، بطلا، عاقلا، عالما، عادلا، وطالت مدته في الملك إلى أن مات، وهو محاصر الفرنج بمدينة عك في سنة ثلاثين وستمائة محمود السيرة والسريرة.

قال السبط ابن الجوزي في "مرآة الزمان " حكى لي بعض من حضر سماط المظفر في بعض المواليد، أنه عد فيه خمسة آلاف رأس غنم شواء، وعشرة آلاف دجاجة، ومائة فرس، ومائة ألف زبدية، وثلاثين ألف صحن حلوى، وكان يحضر عنده في المولد أعيان العلماء والصوفية، فيخلع عليهم، ويطلق لهم البخور، وكان يصرف على المولد ثلاث مائة ألف دينار.

وألف ابن دحية في ذلك تأليفا سماه: "التنوير في مولد البشير النذير"، فأجازه الملك المظفر صاحب أربل المتقدم، واختار ذلك أيضا أبو الطيب السبتي نزيل قوص، وما قاله التاج الفاكهاني، فقد تكلف برد ما استند إليه حرفا حرفا الجلال السيوطي رحمه الله تعالى، وكذا الحافظ ابن حجر.

وقال ابن عباد في رسائله الكبرى: مولد المصطفى ﷺ عيد من أعياد المسلمين ومواسمهم، وكل ما يفعل فيه مما يقتضي وجود الفرح والسرور بذلك المولد المبارك، من إيقاد الشمع وإمتاع البصر والسمع والتزين بلبس فاخر الثياب وركوب فاره الدواب كل ذلك أمر مباح لا ينكر.

والحكم أن هذه الأشياء بدعة في هذا الوقت الذي أظهر الله تعالى فيه سر

الوجود، وارتفع فيه علم الشهود، وانقشع بسببه ظلم الكفر والجحود، وادعاء أن هذا الزمان، ليس من المواسم المشروعة لأهل الإيمان، وإقرار ذلك بالنيروز والهجران، أمر مستثقل تشمئز منه القلوب السليمة، وتدفعه الآراء المستقيمة.

وما حرره ﷺ عليه كان عمل سيدنا حجة الله أبي العباس التيجاني رضي الله عنه، فإنه كان يظهر فيه من الفرح والسرور، ما يشعر بكمال محبته في قطب دائرة الوجود ﷺ.

وقال ابن عبادة: والحاصل أن عمل ذلك بدعة حسنة إن لم يشتمل على منكر وخروج عما حج لنا الشرع المطاع. قال الحافظ ابن حجر في جواب سؤال، وظهر له تخريجه على أصل ثابت وهو ما في الصحيحين: «إن النبي ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألهم قالوا هو يوم أغرق الله فيه فرعون، ونجى موسى، ونحن نصومه شكرا. قال: فيستفاد منه فعل الشكر على ما من به في يوم معين، وأي نعمة أعظم من بروز نبي الرحمة؟ والشكر يحصل بأنواع العبادة، كالسجود والصيام والصدقة والتلاوة».

وسبقه إلى ذلك الحافظ ابن رجب، قال الحافظ السيوطي: وظهر لي تخريجه على أصل آخر، وهو ما رواه البيهقي عن أنس: أنه ﷺ عق عن نفسه، ولا تعاد العقيقة مرة ثانية، فيحمل على أنه فعله شكرا، فكذلك يستحب لنا إظهار الشكر بمولده بالاجتماع وإطعام الطعام ونحو ذلك من وجوه القربات.

وتعقبه النجم بأنه حديث منكر، كما قاله الحافظ، بل قال في شرح المهذب: إنه حديث باطل، فالتخريج عليه ساقط، انتهى نقله في شرح المواهب بشهرة.

من خواص عمل المولد أنه أمان في ذلك العام، وبشرى عاجلة بنيل البغية والمرام، وقد ذكر جملة من خواصه الحافظ شمس الدين ابن الجزري في كتابه: "عرف التعريف بمولد الشريف"، والحافظ شمس الدين ابن ناصر الدين الدمشقي في كتابه " ورد الصادي بمولد الهادي"، والشيخ أبو الخطاب ابن دحية فيما نقله عنه سيدي الطالب ابن الحاج في كتابه الأشراف.

الشبيه التاسع:

جرت عادة الكثير من المحبين في الأقطار الشرقية والغربية القيام عند ذكر مولده ﷺ تعظيما لجانبه ﷺ، واستحسن ذلك منهم جماعة من الأئمة الأعلام، وجعلوه من البدع المستحسنة.

وممن وُجد منه هذا القيامُ عند سماع ذكرِه ووصفه عليه الصلاة والسلام، عالمُ الأمة وإمام الأئمة الزاهد التقي، الدين والورع الزكي، تقي الدين السبكي، حكى ذلك عنه ولده أبو نصر عبد الوهاب في ترجمته من الطبقات الكبرى، وتابعه على القيام جماعة ممن عاصروه، وذلك أنه اجتمع في ختم درس له جم غفير من علماء عصره، من قضاة وأعيان وقته ودهره، فأنشد منشد قول الشيخ أبي زكرياء يحيي بن يوسف الصرصري من قصيدة في ديوانه:

قليلٌ لِمدْحِ المُصطَفى الخَطُّ بالذهَبْ عَلى وَرَقٍ مِن خَطِّ أحسَنِ مَن كَتَبْ
وأنْ يَنهَضَ الأشرافُ عندَ سَماعِه قِياما صُفوفا أو جِثِيّا عَلى الرُّكَبْ
أمَا اللهُ تَعظيما لَهُ كَتَبَ اسْمَه عَلى عَرشِه يا رُتبَةً سَمَتِ الرُّتَبْ

فلما سمع ذلك الشيخ تقي الدين قام، وقام جميع من حضر مجلسه، وحصل لهم أنس كبير.

قال جماعة من الأئمة - منهم شارح الاكتفاء - «ووقع لشارح الاكتفاء المذكور أنه كان بالمدينة المنورة فأنشد منشد قول القائل:

وُقوفا عَلى الأقْدامِ في حَقّ سَيِّدٍ تُعظِّمُه الأمْلاكُ والجِنُّ والإنْسُ

قال: فما شعرنا إلا ونحن والناس قيام بالمسجد النبوي، وجميع من فيه ينشد البيت المتقدم».

وفي "تحفة الأكابر" أن الشيخ سيدي عبد القادر الفاسي ﷺ كان لا يمنع في الفرح بالمولد النبوي من الرقص والشطح المتضمنيْن للقيام والردح، ويذكر عن جده أبي المحاسن أنه قال ليلة المولد لأصحابه: «كيف قال صاحب المولدية - يعني القشتالي - من كتاب الدولة في زمانه؟ فأنشدوا له قوله:

واجِبٌ عَلَيْنا أنْ نَفْرَحْ وأنْ نَرقُصَ فيه وَنَشْطَحْ

ثم إنهم هاموا وقاموا يشطحون». ولله در ابن رشيد البغدادي إذ يقول في وترياته:

صَـفِيٌّ إذا تَحـدّى المَطايـا بوَصْـفِه رَأيْـتَ لَـه الأكْـوانَ تَهتَـز بالـرقْصِ
صَـفا وقْتُـنا طـابَ الـزَّمانُ بمَدْحِـه فَقوموا عَلى ذِكْرِ الحَبيبِ إلى الرَّقْصِ

وقال سيدي حمدون ابن الحاج:

وقَـلَّ أنْ تَـنْهضَ الأشْـرافُ قائمَـةً عـنْدَ اسْـتِماعِ مَديحِـه ولَـمْ تَجِـمِ
تَقـولُ مِـنْ شَـرَف بِـه ومِـنْ شَـغَفٍ فـيهِ وقـدْ رَقـصَت بأطْـيبِ الـنغَمِ
تـاللهِ لـو علمَـتْ روحـي بمَـنْ علقَـتْ قامـتْ علـى رَأسِـها فَـضْلًا عـنِ القَـدَمِ

وذكر الشيخ زروق عن سيدي ابن عباد في رسائله ما يفيد كراهة صوم يوم المولد النبوي، وإباحة ما يفعل فيه مما يدل على الفرح والسرور بالجناب النبوي، من إيقاد الشمع، والتزين بفاخر اللباس وغير ذلك مما جرت به عادة الناس، والأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى.

وفي تحفة الأكابر عن شيخ الإسلام أبي محمد سيدي عبد القادر الفاسي ﷺ أنه كان يذكر عن الإمام الفرداني أبي محمد سيدي عبد الله الغزواني أنه كان يزغرت إذا دخل هلال ربيع الأول فرحا بعروس الأكوان الذي عليه في الدارين المعول.

إذا علمت هذا الذي قدمنا، وأنها بدعة مستحسنة، فقول الهيثمي في فتاويه ما نصه: «ونظير ذلك فعل كثير عند ذكر مولده ﷺ، ووضع أمه له من القيام، وهو أيضا بدعة، لم يرد فيه شيء، يعني فلا ينبغي ارتكابها بدليل ما قدم»، ثم قال: «على أن الناس إنما يفعلون ذلك تعظيما له ﷺ، فالعوام معذورون لذلك، بخلاف الخواص»، ليس مما ينبغي، لأنه وإن كان بدعة لكنها مستحسنة، لما انضم إلى ذلك من تعظيم سيد الدنيا والآخرة، سيما والعلماء يبينون عند تمام فعلهم ذلك أن فعلهم ذلك إنما هو تعظيم له ﷺ، لا أنه ورد به شرع، **فافهم**، والله أعلم.

إذا علمت هذا التحرير فقول بعض المعترضين الذين ديدنهم الاعتراض بالجهل على الناس، أن ذلك من الأمر الشنيع، ويلزم فاعله الأدب الفظيع، كلام تشمئز منه الطباع، وتنفر منه القلوب والأسماع، لا يقوله إلا من لم يزن ما ذاقت الناس في أمر

تعظيمه ﷺ، ولا شم رائحة المحبة له ﷺ، فيقال له:

إذا لـمْ تَذقْ ما ذاقَتِ الناسُ في الهَوى فـبِاللهِ يـا خالِـي الحَـشا لا تُعَنِّفْـنا

إذ كيف يقال مثل هذا في حق من قام تعظيما لمولده الشريف، وإجلالا لما أبرز الله للخلائق من الأمر المنيف، فما أجدره بقول القائل:

وإذا لَـم تَـرَ الهِـلالَ فـسَلِّم لِأُنـاسٍ رَأوْه بالْأبْـصارِ

وقد استدل هذا البعض بكلام ابن حجر المتقدم، وقد علمت من كلامه أنه لا يؤخذ عنه ما قال، وقد استدل أيضا بأنه إنما يقوم الناس لرب العالمين، ولم يعلم أن ذلك مخصوص عند أهل الحق بيوم القيامة كما صرح به جمع من المفسرين، على أن القيام لتعظيمه ﷺ قيام في الحقيقة لرب العالمين، إذ من عظم عبد الملك المحبوب عنده فإنما عظم في الحقيقة ذلك الملك، فشُد يدك على هذا التقرير العجيب، ولا تلتفت لما هول به هذا المسكين، فإنه رأي من ليس بمصيب، وعلى الله في جميع الأمور الاعتماد، فهو سبحانه الرؤوف الرحيم بالعباد.

هذا ما يتعلق بهذا المطلب، والله الموفق سبحانه.

المطلب الرابع
في بعض أسمائه ﷺ وكناه

اعلم أن وجه ذكري بعض أسمائه ﷺ في هذا المطلب أمور:

- **الأمر الأول:** أنها من أجلِّ ما يعتني بها المرء وبمعرفتها.
- **الأمر الثاني:** أنها من فضائله ﷺ.
- **الأمر الثالث:** أن ذكرها يعين على تشخصه ﷺ، ويحصل بها المعرفة التامة به ﷺ.
- **الأمر الرابع:** حيث يعلم السامع أن له ﷺ أسماء كثيرة تزيد محبته في قلبه، ويحصل تعظيمه الذي هو المقصد الأهم.
- **الأمر الخامس:** اختلف في عدد أسمائه ﷺ، فذهب الشيخ عمران الزناتي وتبعه صاحب الدليل إلى أنها مئتان وواحد، قال أبو عمران: قد أجهدت نفسي، وأضنيت عنسي، وأعملت فكري، فيما مضى من عمري، طامحا في جمع أسماء الرسول، والإحاطة منها بالمنى والسول، فطالعت كتب من مضى، وحديث من يختار نقله ويرتضى، فاجتمع لي بعد كد وجد، وضربي غورا بعد نجد، مائتان وواحد. ولعل باحث ماجد، فسيح باع كريم مساعد، يظفر منها بعدد زائد، ويربى بذلك قدره على قدر فاقد، ويستحق بذلك حمد حامد، ودعاء راكع وساجد"، ثم سردها مثل ما لصاحب " الدليل".

وقال ابن العربي في كتابه: "الأحوذي في شرح جامع الترمذي " عن بعض الصوفية: إن لله تعالى ألفَ اسم، وللنبي ﷺ ألفَ اسم، وأكثرها من قبيل الصفات، وصفاته ﷺ كثيرة، وكل وصف يجوز أن يشتق له منه اسم، وقاله في العارضة له، ونقل الحلبي في سيرته عن الفخر الرازي: له ﷺ أربعة آلاف اسم، سبعون منها من أسماء الله، وقال ابن فارس مما حكي عنه: إن أسماءه ﷺ ألفان وعشرون.

وقد أفردها جمع بالتأليف، منهم ابن فارس، والقرطبي، والجلال السيوطي، وجمع السخاوي منها ما وقف عليه في كلام عياض، وابن العربي، وابن سيد

Copyrighted material

الناس، ومغلطاي، والبرهان الحلبي، وابن حجر، وغيرهم. ورتبه على حروف المعجم في كتابه " القول البديع " فبلغت أربعمائة وثلاثين.

وروى أبو نعيم في الدلائل من عدة طرق، عن أبي موسى الأشعري وغيره: سمى لنا رسول الله ﷺ نفسه بأسماء منها ما حفظنا ومنها ما لم نحفظ فقال: «أنا محمد» الحديث. قلت إن قوله في الحديث: أنا محمد ربما يدل على الحصر. قلت: من المقرر عند العلماء من أهل الأصول، أن العدد لا يخصص نظيره حديث «سبعة يظلهم الله»، الحديث، فإنه ليس المقصود الحصر كما بين في محله.

والحاصل: إن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى.

واعلم أن أسماءه ﷺ توقيفية، لا بد فيها من النقل عن الرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم، كما نقله الإمام الغزالي وأقره الحافظ في "الفتح"، على أنه لا يجوز لنا أن نسميه باسم لم يسمه أبواه به ولا سمى نفسه به ﷺ. قال العلامة التنويري: "والخلاف في أسمائه تعالى لا يجري مثله هنا والفرق لائح".

قال الشبرملسي في حاشيته على شرح الشمائل لابن حجر، ويمكن توجيهه بأنه ﷺ نهى عن وصفه بما فيه غلو فقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم». فإذا اخترع له اسم، لا يؤمن أن يسمى باسم يشتمل على مبالغة في وصفه ﷺ، بحيث يكون مما نهى عنه. وأما وصفه تعالى بأي صفة من صفات الكمال، فلا يعد مبالغة ولا غلوا، بل هي وإن جلت دون ما هو موصوف به ﷻ، فلا محذور في إطلاق شيء مما يدل على الكمال عليه سبحانه وتعالى.

فائدة:

نقل الحافظ في "الفتح" عن بعض شيوخه أن المصطفى ﷺ وإن كانت له أسماء كثيرة، وكُنى كثيرة، لا ينبغي أن ينادى بشيء منها، بل يقال: يا رسول الله، ثم أشار إلى التوقف فيه.

واعلم أنه لا بد من رعاية أمور أربعة: الاسم، والمسمَّى، والمسمّي، والتسمية؛ فالاسم وضع على الذات أو بتعريفها، أو بتخصيصها؛ والمسمَّى بالفتح، الذات المقصود تمييزها بالاسم؛ والمسمي بالكسر واضع اللفظ؛ والتسمية، اختصاص

اللفظ بالذات.

ولنقتصر في هذا المطلب على الكلام على سبعة أسماء من أسمائه ﷺ، فأقول وبالله التوفيق والهداية:

من أسمائه ﷺ "محمد":

اَللهُ أكبـــرُ مـــا أجْلـــى جلالـــتَه اَللهُ أكبـــــرُ جـــــلَّ اللهُ مَـــــولاهُ
اَللهُ أكبـــرُ مَـــن يَـــدري حَقيقـــتَه مـــا كـــان أرفَعَـــه قَـــدرا وأعْـــلاهُ

وإنما **آثرتُ تقديمَه** لوجوه:

- **الوجه الأول:** أنه أشهر أسمائه ﷺ.
- **الوجه الثاني:** أنه ألذ أسمائه عند جميع السامعين وأشوقها إلى الصلاة عليه ﷺ، حتى إنك تجد العامي وغيره إذا سمع أحدا ينادي من اسمه محمد، فبمجرد سماعه الاسم الشريف يتبادر بالصلاة عليه قبل أن يكْمل المتكلم: ابن فلان.
- **الوجه الثالث:** أنه هو الوارد عن السلف والخلف في صلواتهم، وكذا في الأحاديث النبوية، ولم يرد عن السلف والخلف غيرُه، حتى أحمد. ولا يكفي في الإسلام غيره ولو أحمد خلافا للحكيم، وأنه يتعين فيه الإتيان به في التشهد والخطبة، ولا يكفي فيه أحمد، قاله المناوي في شرحه " لامية السير".
- **الوجه الرابع:** أنه المخصوص بكلمة التوحيد: لا إله إلا الله محمد رسول الله.
- **الوجه الخامس:** كونه أفضلَ أسمائه ﷺ، ففي كتاب " إرشاد المريد في خلاصة علم التوحيد"، نقلا عن خاتمة المحققين الأمير في حاشيته، علي بن عبد السلام، وكذا في المواهب أيضا عند التكلم على الاسم الشريف ما نصه: «هو أفضل أسمائه ﷺ، لكن سيأتي لنا أن الراجح أن أحمد أفضل».

وسماه ﷺ بهذا الاسم الشريف جده سيدُنا ومولانا عبدُ المطلب، فقد روى البيهقي في الدلائل أن عبد المطلب لما وُلد المصطفى ﷺ عمل له مأدبة، فلما أكل

Copyrighted material

وسألوه: ما سميته؟ قال: محمدا، قالوا: فلمَ رغبت عن أسماء أهل بيته؟ قال: رجاء أن يحمده الله في السماء، وأهل بيته في الأرض.

وروى الحافظ محمد بن أحمد الدولابي عن يونس والسهيلي عن أبي دريد: أنه ألقيت عليه جفنة ليلة ولادته لئلا يراه أحد قبل جده، فجاء والجفنة قد انقلبت، فقيل له: ما سميت ابنك؟ قال محمد، قيل له: لِما سميته باسم لم يكن لأحد من آبائك ولا قومك؟ قال: إنني لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم، وقد حقق الله فراسته.

وذكر أبو طالب العابر والبطليوسي في كتابه " الاشتمال"، والقيرواني في "البستان ": أنه سماه بذلك لرؤيا رآها فقال: إنه رأى كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره، لها طرَف في السماء، وطرفٌ في الأرض، وطرف بالمشرق، وطرف بالمغرب، ثم عادت كأنها شجرة، على كل ورقة منها نور، فإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها، فقصَّها، فعُبرت له بمولود يكون من صلبه يتعلق به أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماء والأرض.

وقد سمعت آمنةُ أمه ﷺ أيضا قائلا يقول لها: "إنك حملت بسيد الأمة، فإذا وضعته فسميه محمدا"، وأُمرت في رؤيا أخرى أن تُسميَه أحمد. وقد سماه تعالى بهذا الاسم الذي هو محمد قبل أن يخلق آدمَ ﷺ، بل قبل أن يخلق الخلقَ بألفي ألف عام. قال ابن قتيبة: "من أعلام نبوءته أنه لم يتسمَّ به أحد قبله صيانة لهذا الاسم الشريف كما صين يحيى من وقوع لبس". لكن لما قرب زمانُه، وبَشر أهل الكتاب بقربه، سمى قوم أولادَهم بذلك رجاء أن يكون هو، وغفلوا عن كونه تعالى أعلمَ حيث يجعل رسالاته.

وفي "المواهب"، وكذا في "الفتح" أنهم خمسةَ عشر، لكن زاد غيرهما على ذلك، ولعل مراد من ذكر الخمسة عشر أنهم الذين اشتهروا بالنسبة للباقين. واقتصر في "الشفا "على سبعة: محمد بن أحيحة بنِ الحلاج الأوسي، ومحمد بن مسلمة الأنصاري إلى آخر ما ذكره في الشفاء.

وهذا الاسم الشريف علم على الذات المشرفة، قال مولانا جل علاه: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح: 29]. وروى ابن القيم: هو علم وصفة اجتمعا في حقه ﷺ وإن

كان علما محضا في حق من تسمى به غيره، وهذا شأن أسماء الله، فأسماء نبيه أعلام دالة على معان هي أوصاف مدح، فلا تضاد فيه: العلَمية والوصفية بخلاف غيره، فحينئذ هو علم باعتبار النقل، منقول من الصفة لأن أصله اسم مفعول من حمَّد المضعف، ثم نُقل وجعل علما عليه ﷺ.

وهو من صيغ المبالغة معنى، إذ الثلاثي تضعَّف عينُه لقصد المبالغة، فكان الأصل محمودا من حُمد مبنيا للمفعول، ثم ضُعف فصار النقل حمّد بالتضعيف، والمفعول محمد كذلك، وذلك للمبالغة للتكرار الحمد لله المرة بعد المرة، فالحمد في اللغة هو الذي يحمد حمدا بعد حمد. ولا تكون مفعّل، مثل مضرّب وممدّح، إلا لمن تكرر منه الفعل مرة بعد أخرى، فهو اسم مطابق لذاته ومعناه ﷺ، إذ ذاته محمودة على ألسنة العوام من كل الوجوه حقيقة، وأوصافا، وخلقا وخلقا، وأعمالا وأحوالا، وعلوما وأحكاما. وجميع عوالمه المتنزَّل لها، والظاهر بها، فهو محمود في الأرض، وفي السماء، وهو أيضا محمود في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا ما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة، وفي الآخرة بالشفاعة، فقد تكرر معنى الحمد كما يقتضي اللفظ، ومع ذلك هو الحامد، إذ ما حمَدَه أحد إلا بما علمه إياه إذ هو نبي الجميع.

تكميل:

1. اعلم أنه لما جاز ﷺ الفضائلَ كلها، وسُحِبت عليه جميعُ الفواضل بأسرها، خُص بهذا الاسم الشريف، فجاء هذا الاسم مناسبا وملائما لمنصبه المنيف، كما يدل عليه بحسب وضعه الأصلي الملاحظ بعد الوضع العلَمي من تعدد الحمد وكثرته وتكرره، كما أن أسبابه متعددة، وطرقه متكاثرة، وما أحسن وضعَ الشيء في محله، وإعطاءَ المستحَق لمستحِقه! ولهذا المعنى قال بعض النحاة: إن هذا الاسم الشريف يفيد ما يفيده اللقب من المدح ومن الفضائل التي له ﷺ، فهو الحامد الحقيقي وغيره عالة عليه، إذ الثناء على الله بحسب المعرفة، ومعرفته ﷻ بربه لم يَصلها أحد.

إذا علمت هذا، علمتَ أن كونه ﷺ أحمدَ سابقٌ على كونه محمدا، ولكن في هذا

الاسم الشريف، وهو محمد، إشارة إلى كمال محبوبيته ﷺ لِما في معناه من المكافأة لأحمديته بثنائه تعالى عليه بنفسه في كتابه، وبألسنة خلقه، إذ ألسنة الخلق أقلام الحق، فالمحبوبية فيه أظهر وإن كانت في أحمد أيضا من حيث اجتذابُه إليه، واستعماله في خدمته، وحمده ومعرفته ومعنى المحبة فيه أظهر، ولظهور معنى المحبوبية في محمد كان ألذ سماعا عند جميع المسلمين، وأشوق إلى الصلاة والسلام على سيد المرسلين، هذا وجه أول.

الوجه الثاني:

إن هذا الاسم الشريف جامع لمعاني أسمائه ﷺ، إذ كل اسم منها دال على فضيلة أو فاضلة نحو: طاهر، ومطهر، وخاتم، ومصطفى، إلى غير ذلك من أسمائه. و"محمد " جامع لذلك كله إذ معناه: محمود بالطهارة، **فافهم**.

فصورته ﷺ محمدية، وحقيقته أحمدية تعجز العقول عنها، فلم يكن محمدا حتى كان أحمدَ حمدَ ربه فنبأه وشرفه، وسيأتي في اسمه ﷺ أحمد تتميم لهذا.

الوجه الثالث:

إن تسميته بهذا الاسم الشريف تشير إلى معرفة الرسل والأنبياء بمحمديته ﷺ، وقد تضمن اسم محمد لِعِدَّتهِم عليه الصلاة والسلام دون غيره كأحمد. ففي محمد ثلاث ميمات، إذا بسطتَ كلا منها قُلْتَ ميم، وعدَّتُها بحساب الجُمَّل تسعون، فيحصل من الميمات الثلاث مائتان وسبعون. وإذا بسطتَ الحاء والدال، قلت دال بخمسة وثلاثين، وحاء تسعة، والجملة: ثلاثمائة وأربعة عشر، فذلك عدد الرسل عليهم الصلاة والسلام.

فروح سيدنا محمد ﷺ لما نُفخ في الجسد أُدرِجت في ذاته جميعُ النبوءات، وطُبع عليها، وامتزج الجسد مع الروح بالطبع مدةَ بقاء الجسد في البطن. فإذا أردت أن تفهم ذلك فاعلم أنه رأسُ الرسُل، والرسل ثلاثُمائةٍ وثلاثةَ عشرَ رسولا على قوله، والأنبياء كلهم في ضمن الرسل، يفهم ذلك من فهم انفصال النبوءة من الرسالة، والولاية من النبوءة، وهذا العدد من الرسل عدد حروف اسمه الشريف، عُجنَت فيه بالنشأة المطبوع عليها جميعُ شرائح الرسل، وأخلاقهم، وطبائعهم

الكريمة من طبعه الكريم، فكان يعسوبَهم، والواحدُ الباقي هو لمقام الولاية المفرَّق على جميع الأولياء التابعين للأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

الوجه الرابع:

إن الله ﷻ لما علم عجز الخلق عن إدراك أحمديته جملة وتفصيلا، أظهر لهم هذا الاسم كي يدركوا شيئا من وراء حجاب، ولما علم ﷻ ذلك بيَّن لهم الاشتقاق بما يعرفون فقال: «أنا الذي اشتق الله تعالى اسمي من اسمه، فالله محمود وأنا محمد، ولا فخر». ولم يحكم بمثل ذلك لأحمد، **فتَنَبَّهْ وقِفْ** في حدود الشرع، لأن الناس لا يعرفون معنى الأصل، ولا معنى الفرع، وأيضا بافتراق الأحمديَّتَيْن بالقدم والحدوث. قال حسان رضي الله عنه:

أغَـــرُّ عَلَـــيهِ للنـــبوءةِ خـــاتَمٌ ... مِـــن الله ذو نـــورٍ يَلـــوحُ ويَـــشهَدُ
وضَـمَّ الْإلـهُ اسـمَ النبـيِّ إلـى اسْـمِهِ ... إذا قـالَ فـي الخَمـس المُـؤذِّنُ أشـهَدُ
وَشَـــقَّ لَـــه مِـــنِ اسْـــمِه لـــيُجِلَّهُ ... فَـذو العَـرشِ مَحمـودٌ، وَهـذا مُحمـدُ

وفي " الحِكَم ": «بالاشتقاق إشارة إلى أن في الفرع، وهو محمد، ما في الأصل وزيادة، إذ حمده ﷻ متضمن حمْدَ الله تعالى، والمقصود من الثناء على الواسطة الوصلُ إلى مَن وسطَه بخلاف العكس، إذ لا يشهد مرتبة الرسالة عند ذكر الله تعالى إلا العارفون من حيثية واسطته لهم في ذلك، ومن أثنى على عبد الملك كان ذلك منه أدلَّ على محبته للملك من ثنائه على الملك، لأن من الناس من يخضع للملك ولا يخضع لعبده، ومن هنا حُرِمَ إبليسُ وطُردَ مع كثرة عبادته، نسأل الله أن يوقينا بمنه آمين».

الوجه الخامس:

إن للحكم باشتقاق محمد دون أحمد نكتةً شريفة، إذ حامديَّةُ العبد لسيده لا تتوقف على حامدية السيدِ لنفسه، أي لا يَرعى ذلك فيه، إذ من شأن العبد الخدمة لسيده، بخلاف محمودية العبد، لا ينبغي أن تكون إلا تابعةً لمحمدية سيده. **فإن قيل:** لِمَ بولِغَ في حَمده دون حمد الله؟ **قلت:** لِما مَر أن حمدَه متضمِّنٌ حَمدَ الله،

ولأن محبوبيته لَما كانت بجعل الله، احتيج للتنبيه على كمالها.

الوجه السادس:

إن العارفين ﷺ لما ذكروا محمدا رسولَ الله استحضروا مع ذلك أسماء الرسل، لأنها في ضمن حروف محمد، واستحضروا أسماء المُرْسِل وصفاته العظيمة، ومعاني الأمور المرسَل بها من أمر ونهي ووعد ووعيد إلى غير ذلك، وتسلسل بهم الأمر إلى استحضار أمور كثيرة، ومعان عديدة، تهديهم إلى تعظيم أمر المرسِل والمرسَل به، وهذا ذكر يطلق عليه اسم الذكر من وجوه.

الوجه السابع:

إن هذا الاسم الشريف، فيه إشارة إلى خلق الإنسان على صورة اسمه الشريف، وهو محمد دون أحمد، لعدم معرفة الخلق بأحمديته، ولمعرفة الخلق بنزر قليل بمحمديته، أشار ﷺ بقوله: «يا عمر أتدري من أنا؟ أنا الذي خلق الله آدم وذريته على حروف هجاء اسمي: **مـــحـــمـــد**» هكذا كانت كتابة اسمه الشريف في القديم: فالرأس والوجه بمنزلة الميم، واليدان إذا مددتهما بمنزلة الحاء، والبطن بمنزلة الميم الأخرى، والدال بمنزلة الرجْلَيْن:

لَـــهُ اسْـــمٌ صَـــوَّرَ الـــرَّحمنُ رَبّـــي خَلائقَـــه عَلـــيهِ كَمـــا تَـــراهُ
لَـــه رِجْـــلٌ وَفـــوقَ الـــرجْلِ بَطـــنٌ وتَحـــتَ الـــرأسِ قـــد خُلقَـــتْ يَـــداهُ

ولعدم معرفة الخلق بأحمديته ومعرفتهم بمحمديته، كثر تصرف العلماء العارفين في حروف محمد دون أحمد، قال البيهقي: «الميم الأولى إشارة للملكوت الأعلى، والحاء للحياة والحفظ الذي به وفيه كتب القلم الأسنى، والميم المشددة للملكوت الباطن والملك الظاهر، والدال للدوام والاتصال الماحيين لوهمي الانقطاع والانفصال».

وقال بعضهم: «**الميم الأولى** المعرفة، فقد أعطاه الله المعرفة بعلم الأولين والآخرين؛ **والحاء** إحياء الله العباد على يديه من الكفر بالإسلام حيث قال: ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ﴾ [البقرة: 28]؛ **والميم الثانية**: أعطاه الله مملكة لم يعط

الله أحدا مثل ذلك، وذلك أنْ شَهرَ اسمَه مع اسم الله في المشرق والمغرب؛ **والدال** هو الدليل بجميع الخلق إلى الفردوس».

وقال بعضهم: **الميم** الأولى **والحاء** مأخوذتان من مَحَّ يمحُّ إذا هلك، **والميم** الثانية **والدال** من مَدَّ إذا بسط، فمعناه ﷺ: أهلك الكفر وبدده، ومد الإسلام أي بسطه، يعني يعبد الله في أقطارها:

مُحمـــدُنا مَـــحَّ الإلـــهُ بـــنورِهِ عِبادا طَغَوْا فـي الأرضِ دينُهُمُ الكُفرُ
ومَـدَّ لَـنا الإسـلامَ طُـرّا فلَـم يـزَلْ لَـه النـصرُ والتمكـينُ والبِـشْرُ وَالظفَـرُ

وقال بعضهم: **الميم** محو الكفر بالإسلام ومحو سيئات من تَبعَه؛ **والميم** مَنُّ الله على المومنين بمحمد ﷺ دل عليه قوله تعالى ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً ﴾ [آل عمران: 164] الآية؛ **والحاء** حياة أمته به؛ **والميم** الثانية مغفرة الله تعالى لأمته.

وقال بعضهم: **الميم** الأولى منادي الموحدين، أو ملك أمته به، **والدال** هو الداعي إلى الله، قال الله تعالى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ [الأحزاب: 46] فهو دليلهم في الدنيا، ودليلهم في الآخرة إلى الجنة؛ أو **الميم** الأولى للملك الأول، **والثانية** للثاني الأخروي الأبدي إذا ضعّفت، **والحاء** للرحمة، ولذا توسطت بينهما إشارة إلا أن الملكين يتجاذبانه، ويستمدان منها، **والدال** إشارة لدوام الملك الثاني.

وقال بعضهم: **الميم** الأولى ميم المنة، كأن الله يقول: أمِّن على أمتك بعتقهم من النار، **والحاء** من المحبة: اجعل محبتي في قلوب أمتك، **والميم** الثانية ميم المغفرة: اغفر لأمتك، **والدال**: دام الدين، لا ينتزع منهم دين الإسلام.

وهذه كلها أقوال العارفين رضي الله عنهم، ويكفي أن كلمة التوحيد مختصة به،

وبه يناديه ربُّه؛

وبه كني آدمُ عليه السلام في الجنة، فيقال له: يا أبا محمد؛

وبه تشفع آدم عليه السلام، وعليه صلى آدمُ في مهر حواء؛

وبه كان يسمي نفسَه عليه الصلاة والسلام فيقول: «أنا محمد بن عبد الله»، وكان يقول: «والذي نفس محمد بيده»، ولم يقل أحمد؛

وبه كان يكتب إلى الآفاق، وهو الثابت في كيفية تعليم الصلاة؛

وبه يصلي عليه المصلون المحقون؛

وبه يسميه عيسى في الآخرة، يدل عليه الناس فيقول لهم: اذهبوا إلى محمد يوم الشفاعة؛

وبه كان يسميه جبريل ليلة المعراج حين قال له أهل السماوات: ومن معك؟ قال: محمد نبي الرحمة؛

وبه سماه جده عبد المطلب كما تقدم، إما إلهاما أو بإشارة ملَك؛

وبه ناداه الملِك الجبار؛

وبه صعد ملَك الموت إلى السماء باكيا لما قبض روحه ينادي: وا محمداه؛

وبه يسمي نفسه لخازن الجنان حين يستفتح فيفتح له؛

وهو الذي كان منقوشا على خاتم سليمان، فقد روى الهمذاني من طريق عمرو بن دينار عن جابر مرفوعا: أن نقش خاتم سليمان بن داوود: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

وروى الحاكم وغيره أن هذا الاسم مكتوب على ساق العرش، وفي السماوات السبع، وفي قصور الجنة وغُرفها، وعلى نحور الحور، وورق شجرة طوبى، وسدرة المنتهى، وعلى أطراف الحجب، وبين أعين الملائكة.

وأخرج الديلمي عن علي مرفوعا: أول ما في التوراة مكتوب: «محمد رسول الله»، ووجد مكتوبا على ورق بالهند: محمد رسول الله. وأخرج الخطيب في تاريخه عن عبد الرحمن: كنا بالبحر سائرين إلى أفريقيا فأرسينا، فصاد صبي سمكة طول شبر، فكان في جبهتها اليمنى مكتوبا لا إله إلا الله، وفي جبهتها اليسرى: محمد رسول الله، وكانت الكتابة أبين من نقش على حجر، والسمكة بيضاء والكتابة سوداء كأنها حِبر.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يهوديا نظر في التوراة فوجد اسم

سيدنا محمد ﷺ في التوراة في أربعة مواضع فكشط اسمه ومحاه، ثم نظر في اليوم الثاني فوجده في ثمانية مواضع، فتعجب من ذلك ثم محاه، ثم نظر إليه في اليوم الثالث فوجده في اثني عشر موضعا، فرحل من الشام إلى المدينة فوجده ﷺ قد مات فقال لعلي: أرني ثوب محمد ﷺ، فأخرجه له وشمه، وقام عند القبر الشريف وأسلم وقال: اللهم إن كنتَ قبلت إسلامي فاقبضني إليك، فمات وكفنه وصلى عليه ودفنه.

هذا في الكلام على اسمه سيدنا محمد ﷺ:

وثَـمَّ أمـورٌ لـيسَ يُمكـنُ كَـشفُها هُـنا قَلدَتْنـي عِقـدَهنَّ شَـرائعُ

ووراء ذلك أمور لا تدرَك إلا بالوجدان، يَعْقلها أهلُ الأذواق والعرفان:

سـتَكفيك مِـن ذاكَ الجمـالِ إشـارَةٌ فدَعْـه مَـصونا بـالجَلال مُحَجَّـبا

وأتروَّح وأقول:

ومُـستَخبِر عَـن سِـر لَيلـى رَدَدتُـه بعَمـياءَ عَـن لَيلـى بغَيـر يَقـينِ

يَقولـون: خَبِّـرنا فأنـتَ أميـنُها ومـا أنـا إنْ خَبَّـرتهُمْ بأمـينِ

ثم أقول:

وفـي الـسِّرِّ أسـرارٌ دِقـاقٌ لَطـيفةٌ تُـباحُ دمانـا جَهـرةً لَـو بِهـا بُحْـنا

- ومن أسمائه ﷺ سيدنا: "**أحمد**":

لم يتسمَّ بهذا الاسم الشريف أحد قبلَه ﷺ. قال الحافظ: «والمشهور أن أول من تسمى به بعده ﷺ والد الخليل بن أحمد، لكن زعم الواقدي أنه كان لجعفر بن أبي طالب ابن اسمه أحمد، وحكى ابن فتحون في "ذيل الاستيعاب " أن اسم أبي حفص ابنِ المغيرة الصحابيّ أحمد. ويقال في والد أبي السفر إن اسمه أحمد، قال الترمذي: أبو السفر هو سعيد بن يحمد، ويقال ابن أحمد»، انتهى نقله في شرح المواهب.

قال البيهقي وتبعه صاحب الشفاء وغيره: معناه أحمد الحامدين لربه لأنه على ما ثبت في الصحيح: يفتح عليه يوم القيامة بمحامد لم يفتح بها على أحد قبله،

فيحمد ربه بها وما حمد حامد إلا بواسطته ﷺ، إذ هو نبي الجميع، فهو الحامد لله تعالى على التحقيق، ولهذا ينصب له ﷺ لواء الحمد، ويكون تحته آدم فمن سواه، ويخص بالمقام المحمود، ويشتهر في تلك العرصات بصفة الحمد، ويبعثه ربه هناك مقاما محمودا كما وعده، يحمده فيه الأولون والآخرون بشفاعته لهم، ويفتح عليه من محامده ما يشاء مما لم يعط غيره، لقوله: «فيلهمني من محامده ما يشاء»، وسمى أمته في كتب أنبيائه بالحامدين.

واعلم أن حقيقة أحمديته ﷺ تعجز العقول عنها، فلم يكن محمدا حتى كان أحمد حمدَ ربه فنبأه وشرفه، فلذلك تقدم اسمه أحمد على اسمه محمد، فبأحمد ذُكر قبل أن يذكر بمحمد لأنه حمد ربه، قبل حمد الناس له هو، فلما وُجد وبُعث كان محمدا بالفعل.

فانظر كيف ترتب هذا الاسم الشريف قبل الآخر في الذكر والوجود في الدنيا والآخرة، **تلُحْ** لك الحكمة الإلهية في أن حقيقته ﷺ أحمدية، ويتضح لك عجز الخلق كلهم عن حقيقته الأحمدية، وأنه لا يحيط بها إلا الله. ومن هنا لم يقع التصريف في أحمد لعجز الخلق عن ذلك لأنه هو السابق في الخلق والمعرفة والوجود والحمد. والأصل في ذلك وغيره، فروعه وجداوله، وكيف يحيط الفرع بالأصل؟ **فتنبه** لهذه النكتة حيث سكتوا عن هذه التسمية عجزا لا غير، **فافهم** مقاصد الأكابر، فهُم أدرى بالأدب الباطن والظاهر.

فإن من هذا أن المحمدية بمثابة الصورة، وظاهرها الذي أدركه المؤمنون بمثابة الظل، لأنه مشير إلى عظمة الأحمدية وفخامتها، إذ المحمدية مُرَتبة عليها، فهي حاكية لها، ومنْبئة عنها بوجه إجمالي، وكانت صورة لظهورها، وشهرتها وشدة وضوحها. ومن ثم أمر ﷺ في الصلاة باسم محمد دون أحمد لعلمه أن العقول لا تطيق أحمديته.

وبالجملة، فهذا الاسم الشريف، والذي قبله، لهما مزية على سائر أسمائه ﷺ، وقد بسط الكلام على الحقيقة المحمدية والأحمدية في "جواهر المعاني".

- ومن أسمائه ﷺ: "طَـــــهَ":

فقد روى النقاش عنه ﷺ أنه قال: «لي في القرآن سبعة أسماء»، فذكر منها طه. قال ابن سلطان في شرح الشفاء: «وكون أسمائه في القرآن إنما هي سبعة، أي تصريحا، وإلا فقد ورد تسميته فيه بالرسول وبالنذير».

قلت: قد ذكر بعض المفسرين أن هذا الاسم من أسماء الله تعالى، وعليه فيحتمل أنه من أسماء الله، ويحتمل أنه من أسمائه ﷺ، ويحتمل أنه مسمى به الله والرسول، وما كان محتمَلا فليس بصريح في شيء، فقول ابن سلطان، أي تصريحا، لا يظهر إلا أن يقال: أي على قول من يقول: إنه من أسمائه ﷺ خاصة فهو صريح حينئذ، والله أعلم.

وعلى أنه من أسمائه ﷺ، فقيل معناه: يا رجل، وقيل يا إنسان، وقيل يا طاهر، وقيل يا هادي، على طريق الرمز والاكتفاء بحرفين من الاسمين يدلان على الباقي، كما في: «قلت لها قفي فقالت قاف» أي وقفت، وهذا القول مروي عن الواسطي وعن جعفر الصادق، وقيل معناه: طوبى لمن هدى، وقيل: معناه يا مطمع الشفاعة للأمة، ويا هادي الخلق إلى الملة، وقيل الطاء في الحساب بتسعة، والهاء بخمسة، وذلك أربعة عشر حرفا، فشبه بالقمر ليلة البدر. وهذه الأقوال من محاسن التأويل، ونكت الإشارة، لا أنها مما يعتمد في التفسير.

وقرئ **طهْ** بإسكان الهاء على أنه أمر له ﷺ بأن يطأ الأرض بقدميه معا. وقد روى ابن مردويه عن علي وابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه، فأمر أن يطأ الأرض بقدميه معا، وأن الأصل " طأ " فقلبت همزته هاء كما قالوا هياك في إياك، وهرقت في أرقت.

ويجوز أن يكون الأصل من طأ، فقلبت همزته هاء على ترك الهمزة، فيكون أصله طأ يا رجل، ثم أثبت الهاء فيها للوقف، وعلى هذا يحتمل أن يكون أصل طه طاها، فالألف الأولى مبدلة من الهمزة، وها ضمير الأرض، لكن يردُّ ذلك كتْبهما على صورة الحرف. والمعتمد أن " طه " من أسماء حروف التهجي، وقيل معنى طهْ بالسكون: اطمئن.

- ومن أسمائه ﷺ "**يـــس**":

قد أخرج ابن عدي في الكامل عن علي وجابر، وأسامة بن زيد، وابن عباس، وعائشة، وأبي نعيم في الدلائل، وابن مردويه في تفسيره، عن أبي الطفيل رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لي عند ربي عشرة أسماء»، ذكر منها **يس**، وفي سنده مقال، أيْ ضعف.

وأخرج البيهقي عن محمد بن الحنفية قال السهيلي: «ولو كان اسما له لقال يا يسُ بالضم، كما قال في يوسف: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ [يوسف: 46]»، وتعقبه تلميذه ابن دحية بأن الكلبي قرأ بالضم، أو على حذف النداء، وقيل معناه: يا إنسان، وقيل يا محمد، وقيل يا رجل، وقيل يا سيد البشر، وقيل يا سيدي، حكاه السلمي وغيره. وفي تعظيمه وتمجيده على تفسيره بالسيادة ما لا يخفى، وقيل من أسماء الله، أقسم سبحانه به.

- ومن أسمائه ﷺ "**عبد الله**":

وهذا من أعظم أسمائه ﷺ، وقد سماه الله عبدا، وذلك غاية التفضيل والتكريم له حيث أجل أمره، وعظم قدره، فقال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ [الإسراء: 1]. والعبد اسم مضاف لاسم الرب والسيد والمالك، فإن العبد مَن له رب، فمن عرف نفسه بالعبودية، عرف ربه بالربوبية، فشهود العبودية مستلزِم شهودَ الربوبية، ومن لا يغفل عن العبودية بالكلية هو العبد علما، وحالا، ووجدا، وتحققا، ووجودا. وعدم الغفلة عن العبودية كمال الإنسان، وذلك موقوف على العبودية، فالعبودية كمال، وهو عين الكمال الإنساني:

لا تَدعونـــي إلا بِـــيا عـــبْدَها فإنَّهـــا أشـــرفُ أسْـــماءِ

ولما كان لسيدنا محمد ﷺ كمالُ الرسالة، وجب أن يكون له كمال العبودية. ومقام العبودية أشرف المقامات، إذ لأجلها كان الإيجاد، قال سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: 56]، فكان ﷺ أكملَ الكمّل على الإطلاق، وعبوديتُه أكملَ كلِّ كمال.

ولما كانت العبودية عينَ الكمال، وكان له ﷺ كمالُ العبودية أثنى الله تعالى عليه باسم العبد، وسماه به في أشرف مقاماته فقال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: 1]، وقال: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [النجم: 10]. وكان ﷺ يقول كما في الصحيح: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، ولكن قولوا: عبد الله ورسوله»، فاستثبت ما هو ثابت له، وأسلم الله بما هو له لا سواه، وليس للعبد إلا اسم العبد، ولذلك كان "عبد الله" أحب الأسماء إلى الله تعالى.

ولما خير ﷺ بين أن يكون نبيا ملكا، أو نبيا عبدا، اختار أن يكون نبيا عبدا، فاختار ما هو الأتم والأحب إلى الله تعالى، وما يضاف إليه لأن النبي والعبد تصح إضافتهما، إذ يقال: نبي الله وعبد الله، ولا يقال: ملك الله، لما يتوهم من عكس النسبة، قاله الشيخ مكي في أنموذج اللبيب للسيوطي.

ومن خصائصه ﷺ أن سماه الله " عبد الله " ولم يطلقها على أحد سواه، لذا قال في غيره: ﴿ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: 3]، ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾ [ص[30 :.

وبالجملة فالعبودية أمر شريف، وسر من أسرار الله لطيف، تنافس فيه المتنافسون، وتوشحت به عباد الله المتقون، ويرحم الله القاضي عياض إذ يقول:

ومما زادَني طَرَبا وَتيها ... وكِدْتُ بأخْمَصي أطَأُ الثُرَيّا

دُخولي تَحتَ قَولِك: يا عِبادي ... وأنْ صَيّرْتَ أحمدَ لي نَبِيّا

- ومن أسمائه ﷺ "**المدثر**" و"**المزمل**":

وأصلهما المتدثر والمتزمل، فقلب وأدغم كما هو معلوم عند علماء التصريف. والمتدثر المتلفف في الدثار، وهو الثوب الذي يلي الجسد، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «الأنصار شعار والناس دثار»، والمزمل بمعناه.

وسمي ﷺ به لما روي أنه كان يعرق من جبريل ويتزمل بالثياب أول ما جاءه. وقيل هما اسمان من الحال التي كان عليها حين النزول، أتاه وهو في قطيفة. وقيل معناه يا أيها النائم، وكان متلففا في ثوب نومه، فكان ثوب نومه على هذا هو القطيفة.

وقيل إن في هذا الخطاب ملاطفة وتأنيسا له من الروع، وتنشيطا له على فعل ما أمر به كما تقول لمن أرسلته لأمر فتخوف فتنشطه: أيها المتخوف، امض لأمرك. قال البيهقي: «وليس المزمل من أسمائه ﷺ التي يعرف بها، وإنما هو مشتق من حالته التي كان التبس بها حالة الخطاب، والعرب إذا قصدت الملاطفة بالمخاطب بترك المعاتبة نادوه باسم مشتق من حالته التي هو عليها، كقوله ﷺ لعلي ﷺ وقد نام ولصق جنبه بالتراب: «قم أبا تُراب» إشعارا بأنه ملاطِف له، فقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ ﴾ [المزمل: 1] تأنيس وملاطفة».

وقال الزمخشري: «فنُبه ونودي بما يُجهر إليه الحالة التي كان عليها من التزمل في قطيفته، واستعداده للاشتغال في النوم، كما يفعل من لا يهمه أمر، ولا يعنيه شأن، ألا ترى إلى قول ذي الرمة: «وفي نائمٍ عَن لَيلِها مُتزمِّلِ»، يريد الكسلان المتناعس الذي لا ينهض في معاظم الأمور، وكفايات الخطوب، ولا يحمل نفسه على المشاق والمتاعب». ومن أمثالهم:

أورَدَهـــا سَـــعدٌ وســـعدٌ مُـــشتَمِلْ مـــا هَكـــذا يـــا سَـــعد تـــورَدُ الإبِـــلْ

فعاتبه على الاشتمال بكسائه، وجعل ذلك خلاف الجلد والكيس، وأمر بأن يختار على التهجد والتزمل التشمر والتحبب للعبادة والمجاهدة في الله.

ورُوي أنه عليه الصلاة والسلام قد تشمر لذلك كل التشمر، وأقبل على إحياء ليله، ورفض الرقاد، وجاهد فيه حتى انتفخت قدماه، واصفر لونه، وظهر سيما ذلك في وجهه، وترامى أمره إلى حد أُمر فيه بالتخفيف.

وقيل كان متزملا في مرط لعائشة رضي الله عنها يصلي، فهو على هذا ليس بمعاتبة، بل ثناء عليه، وتحسين لحاله التي كان عليها، وأمر بأن يدوم على ذلك، ويواظب عليه.

وعن عائشة أنها سئلت: «ما كان تزمله؟ قالت: كان مرطا طوله أربعة عشر ذراعا نصفه علي وأنا نائمة، ونصفه عليه وهو يصلي، فسئلت ما كان؟ فقالت: والله ما كان خزا ولا قرا ولا إبريسما ولا صوفا، كان سداه شعر، ولحمته وبر».

وقيل: معناه المتدثر والمتزمل بالقرآن، وقيل بالنبوءة وأثقالها: أي قد تدثرت

هذا الأمر فقم به. وقيل: معنى المزمل الحامل لأعباء الرسالة، من الزمل: بمعنى الحمل ومنه الأزاملة. وعلى هذا يكون التزمل مجازا، وإنما ناداه بالمدثر والمزمل في أول أمره، فلما شرع خاطبه الله تعالى بالنبوءة والرسالة، والله تعالى أعلم وأحكم.

فائدة:

روى ابن جوزي في "التبصرة " والدامغاني في "شهد العروس وأنس النفوس" عن كعب الأحبار أن اسم النبي صلى الله عليه وسلم عند أهل الجنة عبد الكريم، وعند أهل النار عبد الجبار، وعند أهل العرش عبد الحميد، وعند سائر الملائكة عبد المجيد، وعند الأولياء عبد الوهاب، وعند الشياطين عبد القهار، وعند الجن عبد الرحيم، وفي الجبال عبد الخالق، وفي البر عبد القادر، وفي البحر عبد المهيمن، وعند الحيتان عبد القدوس، وعند الهوام عبد الغياث، وعند الوحوش عبد الرزاق، وعند السباع عبد السلام ، وعند البهائم عبد المؤمن، وعند الطيور عبد الغفار، وفي التوراة مُؤَذ مؤذ، وفي الإنجيل طاب طاب، وفي الصحف عاقب، وفي الزبور فارق، وعند الله طه ويس، وعند المؤمنين محمد. **هذا ما يتعلق** بما أردنا الكلام عليه من **أسمائه** ﷺ.

- وأما **كُنـــاه** ﷺ؛ فأعرَفها وأشهرها وألذها "**أبو القاسم**":

روى الحاكم عن أبي هريرة ﷺ مرفوعا أنه ﷺ قال: «أنا أبو القاسم». قال الإمام الإشبيلي في الذخائر: «وكُني بذلك لأنه يقسم الخير بين الخلق يوم القيامة».

وقيل: كني به لأنه أكبر أولاده، ومنها " أبو إبراهيم"، ومنها " أبو الطيب"، ومنها " أبو الطاهر"، والكنى الأربع تكنية له بأولاده الثلاثة أو الأربعة على الخلاف في الطاهر والطيب هل هما لواحد مسمى بعبد الله وبالطاهر والطيب لولادته في الإسلام؟ وهو الصحيح، أو هما لولدين أحدهما الطاهر والآخر الطيب؟ وهو قول ابن إسحاق.

- ومن كناه ﷺ " **أبو المؤمنين** " ونقَلَه بعض الأئمة المعتبرين.

ومن كناه ﷺ " **أبو الأرامل** " كما ذكره في الذخائر قال: كنيته ﷺ في التوراة

أبو الأرامل، ولم يطلع عليه ابن جماعة فعزاه في شرح البخاري لبعض مشايخه، فهو النبي العربي الأبطحي الحرمي المكي الهاشمي القرشي المنتخب من خيار بطون العرب، وأعرقها في النسب، وأشرفها في الحسب، وأنضرها عودا، وأطولها عمودا، وأطيبها أرومة، وأعذبها جرثومة، وأفصحها لسانا، وأوضحها بيانا، وأرجحها ميزانا، وأصحها إيمانا، وأعزها نفرا، وأكرمها معشرا، من قِبل أمه وأبيه ﷺ وعلى آله أجمعين.

فوائد

الأولى:

الكُنية - بضم الكاف وكسرها - هي كما في المصباح اسم يطلق على الشخص للتعظيم نحو، أبو حفص، وأبو الحسن، أو علامة عليه، والجمع كُنى بالضم في المفرد والجمع، والكسر فيهما لغة، وكنَّيته أبا محمد وبأبي محمد. قال ابن فارس: «وفي كتاب الخليل الصواب الإتيان بالباء»، وفي القاموس: «كناه أبا عمرو به سَمَّاهُ به، كأَكْناهُ وكَنَّاهُ. وأبو فلانٍ: كُنْيَتُه وكُنْوَتُهُ، ويُكْسَرانِ، وهو كَنِيُّهُ، أي: كُنْيَتُه كُنْيَتُه».

قال النحاة: هي ما صُدِّر بأب أو أم، سواء كان مدلوله مذكرا حقيقة أو تأويلا، نحو أبي السرج للشمس، كما في قول ابن النحوي في المنفرجة:

وظَلامُ اللَّيْلِ لَهُ سُرُج حَتَّى يَغْشاه أبو السُّرُجِ

فإنها مؤنثة لكنها في تأويل النور، أي إنها أصل الأنوار، وزاد الفخر الرازي: ما صدر بابن أو بنت كابن داية للغراب كما في قول حازم في مقصورته:

ما لُمتُ في ذَنبِ النَّوى ابنَ دايَةٍ ولا بَناتِ العِيدِ بَلْ مَنْ قَد حَدا

قال الغرناطي: «سُمي الغراب بذلك لأنه يقع على داية البعير، والدايَةُ فقارة الكاهل. وتسمى الحصاة بنت الأرض، وزاد غيره ما صدر بأخ أو أخت أو عم أو عمة، أو خال أو خالة».

الفائدة الثانية:

في النوع الثاني والعشرين من المزهر في خصائص اللغة ما نصه: «فائدة جليلة،

قال الزمخشري في ربيع الأبرار: قالوا لم تكن الكنى لشيء من الأمم إلا للعرب، وهي من مفاخرها، والكنية إعظام، وما كان يؤهل لها إلا ذو الشرف من قومه قال:

أكنّـــيه حـــين أناديـــهِ لأُكْـــرِمَه وَلا ألقِـــبُهُ، وَالـــسوءَةُ اللقَـــبُ

والذي دعاهم إلى التكنية الإجلال عن التصريح بالاسم بالكناية عنه، ونظيره العدول عن فَعل إلى فُعِل في نحو قوله تعالى: ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [هود: 44]، ومعنى كنيته بكذا سميته به على قصد الإخفاء والتورية، ثم ترقوا عن الكنى إلى الألقاب الحسنة، فقل من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب، إلا أن ذلك ليس خاصا بالعرب، فلم تزل الألقاب في الأمم كلها من العرب والعجم».

فالغالب في الكنية إذا لم تكن اسما أن يراد بها التعظيم، ولهذا تتعين في خطاب العظماء، ويستقبح أدبا مخاطبة العظيم باسمه، وفي الكشاف عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾ [الحجرات: 11]، إن التكنية من السنة والأدب الحسن. قال عمر رضي الله عنه: «أشيعوا الكنى، فإنها منبهة».

إن قلتَ: لمَ كنيَ أبو لهبٍ في القرآن، والتكنية تكرمة؟ فالجواب أن فيها ثلاثة أوجه:

* **أحدها** أن يكون مشتهرا بالكنية دون الاسم، فلما أريد تشهيره بدعوة السوء، وأن تبقى سمة له ذكر الأشهر من علميه.

* **الثاني:** أنه كان اسمه عبد العزى فَعُدِلَ عنه إلى كنيته.

* **الثالث:** أنه لما كان من أهل النار ومآله إلى نار ذات لهب، وافقت حاله كنيته، فكان جديرا بأن يذكر بها، ويقال أبو لهب كما يقال أبو الشر للشرير. وقيل كني بها لتلهب وجنتيه وإشراقهما، فيجوز أن يذكر بذلك تَهَكمًا به وبافتخاره به. ذكره الزمخشري في كشافه في قوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾ [المسد: 1].

ويحكى أن شخصا كان يؤذي أبا عبد الله بن سعيد الأندلسي، وكان منذر يخاطبه بكنيته فقيل له: أيؤذيك وتكنيه؟ فقال:

لا تَعْجَبوا مِن أنَّني كَنَّيْتُه ... مِنْ بَعْدِ ما قَدْ سَبَّنا وآذانا
فاللهُ قد كَنّى أبا لَهبٍ وما ... كَنّاهُ إلا خِزْيَةً وهَوانا

الفائدة الثالثة:

يكنى الشخص بولده، وهو كثير، كأبي القاسم كنية نبينا محمد ﷺ، وكأبي الفضل كنية سيدنا العباس بن عبد المطلب، وكأبي الحسن كنية سيدي علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

وقد يكنى الصبي في صغره تفاؤلا بأن يعيش ويصير له ولد اسمه ذلك، كقوله ﷺ: يا أبا عُمير ما فعل النُّغَيْر؟ فلا يلزم أن يكون للمكنى ولد مسمى بما كني به.

وفي الشمائل في باب صفة مزاح رسول الله ﷺ عن أنس بن مالك ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ يخالطنا، أي يمازحنا - كما في القاموس: خالطه مازحه - حتى يقول لأخ لي صغير: يا أبا عمير، ما فعل النُّغير؟ قال أبو عيص: وفقه هذا الحديث أن النبي ﷺ كان يمازح، وفيه أنه كنى غلاما صغيرا فقال له: يا أبا عمير».

قال بعض شراح الحديث: أي جعل الصغير أبا لشخص، فيؤخذ منه أن مثل هذا التكني لا يدخل في باب الكذب، لأن القصد من التكنية التعظيم والتفاؤل لا حقيقة مدلول اللفظ من إثبات أبوة وبنوة، وإن كان ذلك أصل الكنية.

الفائدة الرابعة:

قال الزرقاني في شرح المواهب في مبحث أسمائه ﷺ من المقصد الثاني نقلا عن ابن الأثير: «ولقد بلغني أن سبب ظهور الكنى في العرب أنه كان لهم ملك من الأول ولد له ولد توسم فيه النجابة، فشغف به، فلما نشأ وصلح لأدب الملوك، أحب أن يفرد له موضعا بعيدا عن العمارة يقوم فيه، ويتخلق بأخلاق مؤدبيه، ولا يعاشر من يضيع عليه بعض زمانه، ميز له في البرية منزلا، ونقله إليه ورتب له من يؤدبه بأنواع الأدب العلمية والملكية، وأقام إليه حاجته من الدنيا، وأضاف له من أقرانه بني عمه وغيرهم ليؤنسوه ويحببوا له الأدب بالموافقة. وكان الملك كل سنة يمضي له ومعه من له عنده ولد فيسأل عنهم ابن الملك، فيقال له هذا أبو فلَان، وهذا أبو فلَان للصبيان الذين عنده، فيعرفهم بإضافتهم إلى أبنائهم، فظهرت الكنى

في العرب».

هذا هو الأصل فيها، ثم اشتهرت الكنى عند العرب حتى ربما غلبت على الأسماء كأبي طالب، ثم تُوسع في الكنية فصار الشخص يكنى بالكنية تفاؤلا أو تبركا بكنية من يُتبرك بمثله، أو يكنيه بذلك من يتبرك بكنيته، وقد كنى النبي ﷺ سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ في بعض غزواته بأبي حفص، والحفص في اللغة ولد الأسد، ولعل ذلك لكمال شجاعته وصرامته في أوامر الله ودينه، ولا التفات لمن قال إنه كني بابنته حفصة مرقما، **فافهم**، والله أعلم.

الفائدة الخامسة:

قال بعض المحققين: الذي يظهر أن مدار الكنية العارضة على المناسبة بوجه ما، فتارة تجري على مقتضى المناسبة للاسم، إما باعتبار ذاته، كتكنية من اسمه بدر بأبي الضياء، وأبي النور ونحوهما، وتارة تجري الكنية على الاسم باعتبار ما ثبت لمن له ذلك الاسم من ذوي الأقدار كالأنبياء، والأولياء، والملوك، من بنوة أو مطلق ملابسة، كتكنية من اسمه علي بأبي الحسن لمناسبة أن سيدنا علي بن أبي طالب أبو سيدنا الحسن رضي الله عنهما إلى غير ذلك؛ وتارة تقع التكنية بمجرد الملابسة والمخالطة بوجه ما، كتكنية النبي ﷺ سيدَنا علي بن أبي طالب ﷺ بأبي تراب لما وجده نائما في المسجد وقد علق التراب بجسمه، فأيقظه وقال: قم أبا تراب؛ وتارة تكون الكنية على جهة التشبيه والتمثيل، كتكنيته ﷺ سيدنا عمر بن الخطاب بأبي حفص تشبيها له بالأسد كما تقدم، ومن هذا ما وقع للأديب العلامة أبي العباس بن الونان الفاسي في قصيدته القافية في قوله متخلصا:

وإنْ أردْتَ أن تكـــــونَ شـــــاعِرا ... فحْـــلا فكُـــن مـــثلَ أبـــي الـــشمَقمَقِ
مـــا خِلـــتُ فـــي العَـــصرِ لَـــه مِـــن مَـــثَل ... سِـــوى أبـــي فـــي مَغـــرِبٍ وَمَـــشْرِق
لـــذاك كـــنّاه بـــه ســـيدنا الـــسـ ... ـلطـــان عـــز الـــدين تـــاج المفْـــرِق

وتارة يكنى الشخص باسم ابنه وهو الأصل، وقد تقدم أن ذلك هو الكثير.

Copyrighted material